الصدام والوئام فى صحافة مصر

الجانب الآخر من القمر

تأليف

أشرف مصطفى توفيق

الكتاب: الصدام والوئام فى صحافة مصر..الجانب الآخر من القمر

الكاتب: أشرف مصطفى توفيق

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

توفيق، أشرف مصطفى

الصدام والوئام فى صحافة مصر..الجانب الآخر من القمر،

أشرف مصطفى توفيق

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٥ – ٠٧٦ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٢٥٤٧ / ٢٠٢٠

الصدام والوئام فى صحافة مصر
الجانب الآخر من القمر





قبل أن تقرأ

في الثمانينات من القرن الماضي، حاول هيكل أن يكتب عن الصحافة المصرية والديمقراطية، ولكنه لم يجد في مصر والبلاد العربية إلا السلطة فكان كتابه "بين الصحافة والسياسة"، ويقول هيكل أنه حاول أن يجد لكتابه عنوانا بديلا خفيفا، وبالفعل اختار عنوان: "الجانب الآخر من القمر" ثم عدل عن ذلك فقد أحس أنه عنوان قصصي، وهو ليس من مدرسة تحويل السياسة إلى قصص، والقصص إلى سياسة، ولأني من مدرسة تحويل السياسة إلى قصص، والقصص إلى سياسة؛ فقد استعرت عنوان هيكل.. المعدول عنه والمهجور، ولم أتركه نسيا منسيًا.

مقدمة

على أبوب الصحافة نتكلم عن الديمقراطية

يقول نزار قبانى في ديوان: "تزوجتك أيتها الحرية".. بحثا عن الطريقة المرضية، في الكتابة الصحافية، حتى لا ننخدع بالديمقراطية.

– اكتب بلا أصابع.. وكن بلا قضية.

– امسح حذاء الدولة العلية.

– اشطب من القاموس كلمة الحرية.

– لا تتحدث عن شؤون الفقر، والثورة، وعرايا الشوارع الخلفية.

– كن غامضًا في كل ما تكتب.. والزم مبدأ التقية.

– خصص عمودك اليومي للأزياء، والأزهار، والبخور، والفضائح الجنسية.

– لا تتعرض للسلاطين إذا تعهروا، أو قامروا، أو تاجروا؛ فهذه مسألة شخصية.

ففي مصر التي عرفت الصحافة كما عرفتها المنطقة العربية حديثا، ومنذ بواكيرها الأولى في القرن التاسع عشر، طورد الصحفيون ومؤسسو الجرائد الأولى في الشرق الأوسط، وأغلقت صحفهم، وبعضهم مات بالاغتيال أو نفي أو سجن، كما في حالة المفكر السوري عبد الرحمن

الكواكبي الذي مات في القاهرة بدسّ السم له في فنجان قهوة في العام ١٩٠٢، بعد أن عاش ينتقد السلطان عبر مسيرة طويلة كتب وقتها تحت الاسم المستعار (مسلم حر الأفكار) ولكن آخرين اكتشفوا منذ البداية أن الخير في التصالح مع الشيطان، الذي تجسّد في صور عدّة: قوة احتلال، حاكم عسكري، دولة.. أو رئيس جمهورية فيما بعد، فاختار محمد كرد علي الذي سارع إلى القبول بمنحة مالية من جمال باشا (السفّاح) قدّمها لجريدته (المقتبس) الدمشقية، مقابل تخفيف اللهجة في نقد القمع الذي تتعرّض له سائر البلاد. وفي مصر نشأت الصحافة من تنافر العقل المثقف مع الحكم والتقاليد الاجتماعية والدينية، فكانت وقائع رفاعة الطهطاوي، ومن أبلغ ما قيل وقتها عن الصحفيين (فلان من أعلم الناس لولا أنه صحفي).

جرينا وراء الكتب، وتناقشنا، وتعبنا، ووقفنا عند أقدم سؤال في الفلسفة السياسية: ما هو أفضل نظام سياسي لحكم البلاد، أي بلاد؟ وقيل بغير الديمقراطية، لا يكون أمام الأنظمة غير طريق واحد، بدايته قناة تليفزيون أو جريدة، ونهايته دبابة أو مدفع؟! فالصحافة في أي بلد جزء من الحياة السياسية فيها، ولأن هذا مفهوم، فهناك تكالب من السلطة على السيطرة على الصحف.. ولم تكن فكرة تأمين الصحافة في مصر إلا من هذا المنطلق؛ فعبد الناصر نقلها من ملكية أصحابها إلى ملكية الدولة.

نشرت «روزاليوسف» رسالة خطيرة كتبتها السيدة «فاطمة اليوسف» صاحبة المجلة إلى "جمال عبد الناصر" قالت «اليوسف» في رسالتها:

«تحية أزكي بها شبابك الذي عرضته للخطر، وجهدك الذي تنفقه من أجل هذا الوطن، تحية من سيدة عاصرت الحوادث واعتصرتها التجربة أنفقت عمرها تتأمل الوجوه القديمة حتى كفرت بكل وجه يحمل ملامح القدم، فلا يسعدها اليوم شيء كما يسعدها أن ترى الوجوه الجديدة تزحف، وتنال فرصتها الكافية لتحاول أن تسير بهذا الوطن بأسرع مما كان يسير، إني أعرف الكثير عن ساعاتك التي تنفقها عملًا بغير راحة، ولياليك التي تقطعها سهرًا بلا نوم.. وتدقيقك البالغ في كل أمر بغية أن تصل فيه إلى وجه الصواب، ولكنك وحدك لن تستطيع كل شيء، ولا بالمعونة الخالصة من إخوانك، وأصدقائك، وكل الذين تعرفهم وتثق بهم، فلا بد لك من معونة الذين لا تعرفهم أيضًا الذين يعيشون في جو غير جوك، ويتأثرون بعوامل غير التي تؤثر في أصدقائك، ويمرون بتجارب كثيرة منوعة لا يمكن أن يمر بها واحد من الناس، ولا عشرة، ولا ألف. إنك باختصار في حاجة إلى الخلاف كحاجتك إلى الاتحاد، إن كل مجتمع سليم يقوم على هذين العنصرين معا، ولا يستغنى بأحدهما عن الآخر.. الاتحاد للغايات البعيدة والمعانى الكبيرة والخلاف للوسائل والتفاصيل.. انظر إلى الأسرة الواحدة في البيت الواحد قد تراها متماسكة متحابة متضامنة، ولكن كل فرد فيها يفضل نوعًا من الطعام، ويتجه إلى طراز من العمل، ويروق له لون من الثياب، ثم انظر إلى أسرة الوطن الكبير، أي وطن كبير تجد هذا التباين والخلاف موجودًا بينهم في أدق دقائق الحياة، وفي طريقة تذوق الحياة ذاتها. أنت تؤمن بهذا كله لا شك في ذلك وقرأت لك حديثًا تطالب فيه بالنقد، وبالآراء الحرة النزيهة ولو خالفتك، ولكن.. أتعتقد أن الرأي يمكن أن يكون حرًا حقًا وعلى الفكر

قيود؟.. وإذا فرض وترفقت الرقابة بالناس واستبدلت حديدها بحرير، فكيف يتخلص صاحب الرأي من تأثيرها المعنوي؟ يكفي أن توجد القيود كمبدأ ليتحسس كل واحد يديه.. يكفي أن يشم المفكر رائحة الرقابة، وأن يرى بعض الموضوعات مصونة لا تمس، ليتكبل فكره، وتتردد يده، ويصبح أسيرا بلا قضبان.. قرأت لك أيضًا، أو لبعض زملائك، أنكم تبحثون عن كفايات "تقصد كفاءات"، وتريدون طرازا غير المنافقين الموافقين، ولكن كيف يبرز صاحب الكفاية كفايته؟ أليس ذلك أن يعبر عن نفسه.. يعبر عنها بصراحة ودون تحوير.. إن مجرد شعور صاحب الكفاية مخطئا أو مصيبا، بأن هناك شيئا مطلوبا وشيئا غير مطلوب يجعله إما أن يبعد نفسه خشية ألا يوافق المطلوب، وإما أن يقترب بعد أن يهيئ نفسه ليتلاءم مع ما يعتقد أنه مطلوب، فتضيع الفائدة منه في كلتا الحالتين.. أترى إلى أي حد تفسد هذه القيود الجو؟. أترى إلى أي حد هذا الستار الكثيف الذي تقيمه بين الحاكم وبين ضمائر الناس؟

الناس لابد أن يختلفوا لأنهم مختلفون خلقا ووضعا وطبعا، ودعت الظروف إلى إلغاء الأحزاب، وتعطيل الكثير من وسائل إبداء الرأي، وأصبح للعهد الجديد شعار واحد وألوان واحدة، فلم يبق شيء يمكن أن يتنفس فيه النقد، وتتجاوب فيه وجهات النظر غير الصحف، وأسنة الأقلام، وتفكير المواطنين.. على أني أعرف الدوافع لإبقاء القيود. إنك تخاف أنياب الأفاعي وفئران كل سفينة. أنت تخاف من إباحة الحريات أن يستفيد منها الملوثون المغرضون..

ولكن صدقني أن هذا النوع من الناس لا يكون لهم خطر إلا في ظل الرقابة وتقييد الحريات.. إن الحرية لا يستفيد منها أبدا إلا الأحرار، والنور لا يفزع إلا الخفافيش.. أما الهمسات في الظلام، والبسمات التي يبطنها النفاق والمدائح التي يمتزج بها السم الزعاف، فلا شيء يبطل مفعولها إلا النور والهواء الطلق والرأي العام النابه الحريص، ولا تصدقوا ما يقال من أن الحرية شيء يباح في وقت ولا يباح في وقت آخر، فإنها الرئة الوحيدة التي يتنفس بها المجتمع ويعيش، والإنسان لا يتنفس في وقت دون آخر، إنك بكل تأكيد تضيق ذرعا بصحف الصباح حين تطالعها فتجد أنها تكاد طبعة واحدة لا تختلف إلا في العناوين.. حتى بعض حوادث الأقاليم المحلية يصدر بها أحيانا بلاغ رسمي واحد، والناس كلهم يحسون ذلك ولا يرتاحون إليه.. وقد قلت مرة أنك ترحب بأن تتصل بك أية جريدة إذا أحست الضيق، ولكن أليس في هذا ظلم لك، وللصحف، وللقضايا الكبرى التي تسهو عنها؟.. ألم أقل إنك لن تستطيع وحدك كل شيء؟..لقد أقدمت، وفي شبابك الباكر، على تجارب هائلة خضت بعضها ورأسك على كفك لا تبالي مصيره، وليس كثيرًا أن تجرب إطلاق الحريات.. إن التجربة كلها لا تحتاج إلا الثقة في المصريين، وأنت أول من تجب عليه الثقة في مواطنيه. (روز اليوسف في ١١مايو١٩٥٣). [1]

---

[1] ورد جمال عبد الناصر عليها ".. لا نريد أن يشترى الحرية أعداء الوطن، وأنا أكره بطبعي كل قيد على الحرية وأمقت كل حد على الفكر، على أن تكون الحرية للبناء وليست للهدم، وأن يكون الفكر خالصا لله والوطن.. وأنا لا أخشى من إطلاق الحريات وإنما حريات من؟! الرجعية

وأعتقد أن حول تلك الرسالة تدور أطروحات الفلسفة السياسية في العقود الأخيرة، وهي كلها جزء من ذلك السؤال القديم للغاية. كان السؤال مطروحًا في الأدبيات السياسية للحضارة الفرعونية، ثم تردد السؤال في حضارات أخرى غير أنّه كان أكثر إثارة في الفلسفة اليونانية، فقد توصلت أثينا إلى مفهوم "الديمقراطية المباشرة"، وهي نموذج سياسي بدائي يقوم على اجتماع المواطنين في ساحة المدينة، والإدلاء بآرائهم في القضايا المطروحة. لم يكن من حق الجميع أن يدلي برأيه، حيث كان البعض ممنوعاً من التصويت، ومع ذلك جرى انتقاد تلك الطريقة التي قامت بتحجيم دور النخبة، وعزّزت دور العامة والغوغاء. مضت أثينا في تجربتها التي هاجمها فلاسفة كبار بوزن أفلاطون، الذي انحاز للنخبة المثقفة ضد حكم الغوغاء، وحصدت بذلك النموذج – برغم انتقاداته – مكانة معنوية رفيعة لبعض الوقت، ثم كان دور النفوذ المتصاعد للغوغاء في تخريب المشروع الديمقراطي، لتنتهي التجربة بهزيمة أثينا على يد إسبرطة.

اختفى النموذج الأثيني قرونًا طويلة، ثم عاد في ثوبٍ جديد مع إطلالة العصر الحديث. جرى تطوير النموذج الديمقراطي حتى وصل إلى

أم بقايا الملكية أو الشيوعيين، فالحرية قبل ٢٣ يوليو كانت تباع وتشترى للملك وللإنجليز، وأنا لا أقصد كل الصحفيين، وإنما الذين منهم قرأت أسماءهم فى كشوف المصاريف السرية، الثورة تصون الحرية من هذا العبث، وتوقفه ولا نطالب الجرائد بالتصفيق لنا. ومع ذلك فأين الحرية التى قيدناها؟ أنت تعلمين أن النقد مباح، ونحن نطالبكم بالتوجيه والإرشاد، بل نرحب بالهجوم علينا، وقد هجم علينا إحسان عبد القدوس مطالبا برفع الرقابة على الصحف، وقام صلاح سالم بالتخفيف فى حدود ظروف النظام العام

منح النساء حق التصويت، ومساواة جميع أفراد الشعب في الوزن والتمثيل طبقًا للقاعدة الشهيرة: "صوت واحد لكل مواطن". أصبح صوت الحائزين على جائزة نوبل في العلوم أو الاقتصاد مثل أصوات الجهلاء والمجرمين والفاشلين.. ذلك أن القاعدة قد تأسست على فلسفة المساواة كبشر، وليس على أساس التميّز كأفراد، ويبذل البعض جهدًا فائقًا لأجل الوصول إلى المستوى اللائق في التعليم والمعرفة، وكذلك النجاح المستمر في ترقية المستوى المعيشي وأسلوب الحياة ولكنّه – بعد ذلك كله – يقف في طابور الانتخابات مساويًا تمامًا لمن لم يبذل جهدًا أو يحقق إنجازًا، أو حتى يدرك ما ذهب لأجل التصويت له، لا يقف الأمر عند حدود التصويت، بل إنّه يذهب إلى عملية الترشيح ذاتها. وأصبح بإمكان الأشخاص الفاشلين أن يتجاوزوا مستوى الإدلاء بالصوت إلى مستوى الترشيح نفسه، وبدورهم لا يحكم الناخبون على المرشحين بالضرورة على أساس المستوى المعرفي أو الفكري أو الأخلاقي، ذلك أنّ المعيار الأهم أصبح هو الانتشار والشهرة. هي الشهرة إذن.. أنْ تستطيع إدارة حملة انتخابية تجعلك "نجمًا" على الحوائط والشاشات. أنْ تُرفع صورك في الشوارع والقاعات، ذلك هو الإطار الأساسي للفوز. أصبح حتميًّا أن يعرفك الناس، ولم يعد ممكنًا المرور شخصيًا على مئات الآلاف أو مئات الملايين من الناخبين، بل أصبح من المهم أن تجد وسائل الإعلام وأدوات الإعلام الجديد حتى تصل إلى كلّ هؤلاء لم يعد الأمر سهلًا على المثقفين، بل صار في قبضة الأثرياء والمشاهير. وحين يتأمل المرء التكوين الثقافي لأعضاء البرلمان

في العالم، وكذلك العديد من المجالس السياسية والنقابية المنتخبة سوف يُذهل من مستوى التراجع الشديد. لا وجود لفلاسفة أو مفكرين، لا وجود لعلماء أو باحثين، لا وجود لخبراء أو مديرين. إنهم موجودون بالدرجة التي لا تكاد تراهم وسط زحام الأقل ثقافة والأدنى خبرة

إن معركة الانتخابات طبقًا للنظرية الديمقراطية المعاصرة باتت أسيرة المال لا المبادئ، والإعلام لا الأفكار، والصورة لا المشروع، والحملة الانتخابية لا المعركة الفكرية. يتأمل الناس المناظرات في انبهار. إنه انبهار قائم على سحر التليفزيون، الألوان والشكل والتسويق، لكن إذا قام أحد الأشخاص بكتابة سوف يجد كمًّا هائلًا من الكلام العادي والأفكار الركيكة. لطالما كان هناك أعداء للنظرية الديمقراطية، لكن اليوم يجد أنصارها معضلةً حقيقية في استعادة فلسفتها ومبادئها، ذلك أنه جرى احتلالها بشكلٍ كامل من المال والإعلام، بحيث أصبحت الشهرة التي يجري صناعتها أو تمويلها هي أساس الفوز والسطْوة، وتتكلف الحملة الانتخابية للنائب ملايين الدولارات، وتتكلف الحملة الرئاسية أرقامًا يصعب التدقيق فيها. وهنا بالضبط تكمن أزمة النظرية الديمقراطية. لم تعد الفلسفة السياسية للنظرية والقائمة على "البقاء للأعلم" قادرة على الصمود أمام تلك القاعدة الجديدة: البقاء للأغنى.. البقاء للأشهر. إنها تكاد تكون نوعًا جديدًا يمكن تسميته "ديموقراطية المشاهير" وهو النوع الذي نقل مركز السلطة من أهل الحكمة إلى المخادعين الجدد.

ففي عام ١٩٩٢ نشر المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما كتابه

الشهير "نهاية التاريخ"، وهو الكتاب الذي قال بأنَّ اللعبة انتهت، وأن الرأسمالية قد فازت على الاشتراكية فوزًا ساحقًا ونهائيًا. لقد انتهي "كأس العالم للسياسة" إذن. لم يعد هناك المزيد من المباريات سيطرت النظرية الديمقراطية وانتهي كل شئ. انهزم الجميع وانتصر الغرب. ولكن وفي عام ١٩٩٣ نشر المفكر الفرنسي جان ماري جيهينو كتابه الشهير "نهاية الديمقراطية" وهو الكتاب الذي قال بأنَّ النظم الديمقراطية الكلاسيكية إلى زوال، وأنَّ القرارات الأساسية للدولة لم تعد تتخذها الشعوب التي تنتخب في العلن، وإنّما جماعات المصالح التي تعمل في الظل وضربنا أخماسا في أسداس..

ثم جاء الفيلسوف الفرنسي"جاك دريدا" بكتابه الشهير "أشباح ماركس" ليقول بأن "كأس العالم الفلسفي" لم ينته بعد، وأن الماركسية لم تصل إلى الكلمة الأخيرة،كما أن المباراة داخل النظرية الرأسمالية نفسها لم تصل إلى نهايتها فالتناقضات الداخلية عميقة وخطيرة. وكان رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل يقول: إن الديمقراطية هي أقل الأنظمة سوءًا واليوم مع صعود الأصوات الفاشية والنازية إلى مقاعد البرلمان، ومقاعد أعلى.. بطريق الديمقراطية. باتَ البعض يراجع مقولة تشرشل، وباتَ يشكك فيما إذا كانت حقًّا هي الأقل سوءًا؟ لا يجب أن تكون انتقادات المفكرين للنظرية الديمقراطية داعمةً لأىّ فكر ديكتاتوري أو سلطوي بحجّة ترهل النظرية، ذلك أن الغاية الإنسانية ليست هي العودة إلى الوراء، بل اتخاذ خطوات تصحيحية تدفع الحياة السياسية للأفراد

والشعوب إلى الأمام إن التحدي الكبير أمام ذلك السؤال الذي يمتد إلى آلاف السنين عن أيّ النظم أفضل؟! إنمّا يتمثل في كيفية حماية الديمقراطية من الديمقراطيين وحماية الرأسمالية من الرأسماليين. وفي قولةٍ واحدة: إنقاذ المنتصرين من عواقب الانتصار.

الجريمة قمة ما تبحثه الصحافة؟!

كانت الملكة "شجرة الدر" تلف أساورها
وعقودها حول مكان تعتقد أنه يستحق..حول وركيها؟!

يقول محمد حسنين هيكل في كتابه (بين السياسة والصحافة): بدأت الصحافة من قسم الحوادث، وظللت فيه قرابة سنة مساعد مخبر صحفي بجورنال "الإيجيبشيان جازيت" فقد أقنعني "سكوت واطسون" أن الصحافة الجادة هي التي تبحث في مأساة الإنسان عندما يعجز عن حل تناقضاته مع الآخرين بالعقل فيلجأ للجريمة، فالجريمة قمة ما تبحثه الصحافة؟!

جريمة القتل أبشع الجرائم، وبخاصة القتل العمد، ولكن أبشع أنواع القتل هو"قتل المحارم" الأب لابنه أوابنته أو العكس، أما أكثر الجرائم تعقيدًا وغموضًا، حين تقتل المرأة زوجها بعد أن تكون الحياة الزوجية امتدت وأثمرت أطفالا، بالطبع قتل الزوج لزوجته بشع، ولكن أن تقتل الزوجة زوجها هو البشاعة التامة.

وقد أعلن مصدر في وزارة الداخلية أن عدد النساء اللواتي أقدمن على قتل أزواجهن في عام ٢٠١٣ بمصر وصل إلى ٥٠ امرأة مشيرا إلى أن عام ٢٠١٤ لم يسجل سوى ١٠ حالات، وهذا يدل بحسب المصدر على أن عدد هذه الحالات انخفض بشكل كبير مقارنة بعام ٢٠١٣. وقال المصدر في تصريح آخر أن عدد النساء اللواتي قتلن

أزواجهن في عام ٢٠١٢ وصل إلى ٣٠ امرأة بينما بلغ العدد في عام ٢٠١١ إلى ١٠ حالات، ولفت المصدر إلى أن عدد النساء اللواتي حرَّضن على قتل أزواجهن وصل في عام ٢٠١٣ إلى ١٧ امرأة بينما بلغ ٧ حالات تحريض على القتل ٢٠١٤.

وقد أفقت على تلك الجريمة سنة ١٩٨٧ وفي شارع سيبويه المصري بمدينة نصر، حيث أعيش، وفي عقار ملاصق لعمارتنا، قتلت زوجة زوجها ثم قامت بعد ذلك بتقطيعه ووضعه في أكياس بلاستيكية، وحشت بلحمه عدة حقائب سفر. وقررت أن تسافر بها وتتخلص منها بالطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية، وضبطت الواقعة واعترفت المتهمة، وتتبعت القضية مع والد المتهمة واستطاع محامي المتهمة أن يصل بها للبراءة؟!(٢)

أما كيف؛ فأمر غريب عجيب يتعلق بوصف المادة التي أعطتها الزوجة لزوجها قبل قتله فقد اعترفت بأنها منوم وعثر على الزجاجة بالمنزل عليها بصمات الزوجة المتهمة، وبالتالي يكون القتل والتقطيع جاء على كائن حي في حالة إغفاءة أو إغماءة أو نوم، ولكن الطبيب الشرعي والمعمل الجنائي وصل لوجود سم زعاف أحدث القتل، وبالتالي يكون القتل والتقطيع جاء على جثة ميتة، ولأن المجني عليه (ع. محمود رجب) صاحب بوتيك في نفس العمارة محل سكنه، فقد تبين أنه تناول، أو أعطاه مجهول السم بالبوتيك فصعد لمنزله لإحساسه بدوخة، وعلى سريره أعطته زوجته المنوم مع الشاي وانتظرت حتى يروح في سبات النوم، وبينما هي تنتظر كان السم

---

(٢) انظر القضية رقم ٥٣٣٧/ ٤٢جنايات قسم مدينة نصر سنة ١٩٨٧ .

يزحف والموت يصل، كانت تنتظر نومه لتقتله فسبقها السم بسحب روحه فأعملت السكاكين والسواطير على جثة ميته مجرد جثة؟! فيما يشبه فعل التشريح من طلبة كلية الطب. وقيدت الجناية ضد مجهول!!

وفي خريف ١٩٩٢ وقت عملي في قسم الوايلي بالعباسية، شغلتنا وشغلت العباسية كلها ما عرفت بـ "جريمة الوايلي" حينما اضطرت الظروف أن يعيش عصام مع أخيه خالد وزوجته في نفس الشقة التي هي عبارة عن حجرة وصالة ومنافعها مع اختلاف ظروف خروج ودخول كل من الأخين؛ فالزوج موظف والأخ حداد يعمل يوم ويعطل يومين!

فلم يخطر على بال خالد عبد الستار أنه سيكون ضحية زوجة خائنة وأخ معدوم الإرادة والضمير! كان طيبا ومسالما يرى الدنيا بعينيه نقية، سعيد بزوجته منى وبابنه بسَّام شديد الاعتزاز بأهله وبشقيقه الوحيد عصام وفجأة اكتشف العكس لا نقاء ولا صفاء وإنما غدر وخيانة اكتشف الفاجعة: زوجته تحب شقيقه، وشقيقه يحبها أيضا.. وهو الزوج المخدوع الرومانسي الحالم الذي يحتفظ بأجندة قديمة منذ أيام الخطبة وبدايات الزواج كانت نكتب له فيها: (حياتي كلها أنت ولا سعادة لي بدونك)، وتختار له من كلمات الأغاني ما يجعله يرق ويسعد: (أقولك إيه عن الشوق يا حبيبي، وكنت فين وأنا فين جت لي منين)!!

احتفظ خالد بهذه الأجندة التي تثبت حب زوجته منى له، لكنه في لحظة اكتشف أنه واهم وما هذه إلا كلمات لا تعكس الواقع بقدر ما تضل وتخدع وتضرب في مقتل! هذه اللحظة لم تستمر أكثر من دقيقتين قال له

شقيقه بقسوة بالغة: "طلّق زوجك لأتزوجها أنا!".. ظنه خالد في البداية يمزح لكنه كرر طلبه: "وهي تحبني ولا تطيق العيش معك"؟! كل ذلك وخالد لا يستوعب الموقف، لكنه رأى الشرر يطفح في عين أخيه وهو يقول له: "طلقها يا ندل خلي عندك شوية دم!!" لم يطق خالد كلام أخيه فلكمه لكمة قوية في صدره؛ فما كان من الثاني إلا أن سحب خنجرا كان يخفيه في ملابسه، وطعن خالد ست طعنات قاتلة فسقط الزوج على الأرض وهو يقول له غير مصدق: "معقول يا عصام.. تعمل كده في أخيك".

البلاغ وصل إلى قسم الوايلي بالعثور على جثة قتيل خلف مستشفى الدمرداش بالعباسية!! وقد سأله المحرر (أحمد عفيفي) من مجلة كل الناس: "كيف فعلتها مع أخيك.. أنت هابيل الذي قتل أخيه قابيل.. أنت أحد الأخوين في قصة الأخوين الفرعونين أنت من؟" وقال عصام:"أنا الخروف الذي سحبته "منى" من قرونه!! وهي حاولت من قبل قتله بالسم وحينما أنقذ في المستشفى قالت لي:"أنا عملت اللي عليا وجاء دورك أنت! اقتله!!"

وقد تحركت الدراسة الظاهرة لوقوع أربع جرائم قتل عام ٢٠١٩ وقعت في أيام قليلة بمحافظة الشرقية، لزوجات تخلصن من أزواجهن، الجرائم الثلاث الأولى لعب فيها العشيق الدور الثاني، دون أن تدري الزوجات والعشاق أن سقوطهم حتمي، مهما بلغوا من براعة في خداع الآخرين حيث تخلت هذه الزوجات الأربع عن الطيبة والوداعة، وتحوَّلن إلى متوحشات قاسيات القلوب، وتمكنت مباحث الشرقية من كشف

غموض الجرائم الأربع، وضبط الزوجات والعشاق، بعد ساعات من ارتكاب الوقائع.

ولأني من محاسيب د.نوال السعداوي؛ قرأت كتبها وذهبت لها وجلست في بيتها الجديد في إحدى ناطحات السحاب بأرض أغاخان بشبرا وفي "فرندة أنيقة" تطل على النيل من الدور الـ ٢٢.. دار حوارنا، وقلت لها: "لماذا تقتل المرأة زوجها؟!"، وقالت: "ابحث عن الجنس إنه وراء كل جريمة عند المرأة؟!"

إنها تبرىء المرأة وتقف معها وتضع كل هوان في حجر الرجل قالت ذلك في: (الأنثى هي الأصل – المرأة والجنس — وفي روايتها "امرأة عند نقطة الصفر").. وتحكي د. نوال: كيف جلست نادية ٢٦ سنة في سجن المنصورة وهي تبكي بلا دموع تروي قصتها، لها، قالت نادية بصوت ممزوج بالألم لها: (نشأت في قرية نائية وسط أسرة كبيرة فقيرة، رغم ذلك حاولت تعويض هذا النقص بالتفوق في الدراسة، ولكن أبي رفض دفع مصاريف المدرسة واضطررت إلى الجلوس في البيت بعد حصولي على الشهادة الابتدائية.كانت حياتي سلسلة متصلة من الأحزان بدايتها حرماني من التعليم الذي حرمني من رؤية علاء، صديق الدراسة الذي حفر صورته داخل قلبي وظل محافظًا على موعد لقائنا حتى حصل على دبلوم صنايع وتقدم لخطبتي ولكن والدي رفض طلبه بطريقة مهينة.. وقبل أن أبلغ عامي الخامس عشر فوجئت بوالدي يبلغني بموعد زفافي على كهل عربي تجاوز عمره الـ ٩٥ عاما ولم يكلف والدي نفسه مشقة سؤالي إذا كنت موافقة أو

رافضة لهذا العريس الكهل. ودفع العريس الثمن، أقصد المهر وجردني من ملابسي كاملة، وظل يرمقني بنظرات طويلة ذبحت حيائي ثم راح يقبلني بقسوة، وهو يغرس أنيابه وأظافره بجسدي ثم أخرج زجاجات الأدوية وتناولها وراح في نوم عميق وتركني مع حيرتي.. هل هذا هو الزواج؟ ولماذا جردني هذا الوغد من ملابسي وأدمى جسدي بأنيابه؟.. لن أنسى تلك الليلة حتى أنني ظللت جالسة طول الليل، واستيقظ عريس الغفلة فوجدني كما تركني بالأمس فعاود كرته مرة أخرى وتناول أدويته وطلب مني ارتداء ملابسي وإعداد الإفطار له بينما قام هو بذبح دجاجة ولوَّن بدمائها المحرمة البيضاء ليثبت للأهل والأصدقاء أنه نجح في فض غشاء البكارة، وفي الظهيرة حضرت أمي وسألتني وخجلت من الإجابة عليها وأسرع زوجي العزيز لإحضار (المحرمة) المزيفة وانصرف (المهللون) بعد الاطمئنان علينا وبقيت وحيدة مع زوجي الذي اعتاد إهدار إنسانيتي وكرامتي ويتركني ألملم جروحي وأبذل المستحيل لوقف نزيف كرامتي، ولكني فشلت واستسلمت لوحشيته في العبث بجسمي كل يوم وكل ساعة.

ووسط هذه الجراح بدأ علاء محاولة لإحياء الحب القديم، يلح بالكلام المعسول وبعض الهدايا، ورفضت رغم ضعفي وحرماني وفضلت الموت على الخيانة، وبمرور الأيام بدأت ألين وكان إحساسي بأني يجب أن أكون "أما" بدأ يلح علي يعتصرني وقلت لزوجي "طلقني"، ورفض الزوج الطلاق، وانتهى الأمر بها وعلاء إلى السجن، فقد قتلا الزوج وحكم على كليهما بـ ١٠ سنوات سجن؟!

وتطرح د.نوال سؤال: ألا يستحق أن يقتل هذا الزوج ألف مرة؟!

وقلت لها: ألهذا قلتِ ما قلتِ في كتابك "الأنثى هي الأصل"؟ قلتِ: (البغاء معناه حدوث عملية جنسية بين رجل وامرأة، لتلبية حاجة الرجل الجسدية ولتلبية حاجة المرأة الاقتصادية، والغريب أن القانون يعاقب المرأة على هذه العلاقة ولا يعاقب الرجل عليها؛ فالرجل يعطي حق إشباع جنسي واسع فلا يعاقب الرجل الذي يضبط مع مومس، وإنما يكون شاهدا عليها فقط!! وكذلك لا يعاقب الرجل المتزوج إذا مارس الجنس مع غير زوجته أو عشيقاته طالما أنه لم يحضرهن إلى البيت الزوجية وغرفة النوم.. أما المرأة فهي تُعاقب في جميع الأحوال والظروف سواء دفعتها للممارسة حاجة اقتصادية أو جنسية، ولا يسمح لها بممارسة الجنس إلا مع زوجها فقط).

وترد علي د. نوال السعداوي: فهذا معناه أن حاجة المرأة الاقتصادية أقل أهمية لدى القانون من حاجة الرجل الجسدية، فمتعة الرجل أهم من طعام المرأة وحاجة أطفالها، فإذا كان البغاء مقايضة بين إشباع حاجة جسدية لرجل وحاجة اقتصادية لامرأة فلماذا تعاقب المرأة وحدها؟! أو لماذا لا يساوي بين أهمية الاحتياجين؟!

ثم تطرح تساؤلا: ماذا يفعل القانون لو أرادت امرأة أن تسد احتياجها الجسدي ورغبتها الجنسية بأن تدفع لرجل لديه حاجة اقتصادية، أي ماذا يحدث لو تغيرت الأدوار، وبخاصة أنه ليس هناك سبب علمي يعطي الرجل حرية جنسية أكثر من المرأة، بل العكس هو

الصحيح أن الطبيعة قد زودت المرأة بقدرة وحاجة بيولوجية وجنسية أشد من الرجل!!

وتستمر في الحديث د. نوال السعداوي، فلم تتلق مني ردًا، ولم يكن عندي ردود؛ فتقول: وفي عنبر القتلة بسجن النساء كانت هناك زوجة عذراء تريد أن تروي حكايتها لي، وكنت وقتها معتقلة بأوامر السادات في اعتقالات ١٩٨١.. وقالت لى :(منذ الطفولة وأنا خادمة في البيوت لأن والدي فقير لا يملك سوى قوة جسده يؤجرها للعمل في الحقول ورغم ذلك أنجب عشرة أولاد لم يستطع إطعامهم؛ فأجبرنا على العمل في المنازل، وعرفت الحرمان من الصغر.. كنت أخرج لأشتري الحلوى واللعب لابن البيه بينما لا أجرؤ على مشاركته في اللعب ولا أملك سوى الطاعة وإلا نالت من جسدي الملعقة الساخنة.كنت أعمل ليل نهار دون كلل ويحضر أبي في نهاية الشهر ليقبض الشهرية،كرهت العمل والناس وأبي، وتمنيت التحرر من العبودية، ولكن كيف الهروب من المصير المحتوم؟.. مرت الأيام وشعرت بعلامات الأنوثة تنفجر في كامل جسدي وخشي البيه على ابنه مني فقرر تزويجي من ابن سايس الجراج واشترى لي قرطا وسلسلة ذهبية ولم أستطع رفض هنا الإغراء واستغل البيه فرصة حضور أبي لأخذ الشهرية وعقد القران وتم الزفاف في غرفة صغيرة بالجراج. لم أنم هذه الليلة عندما اكتشفت أن زوجي العزيز لا يمت للرجولة بصلة فهو هيكل آدمي لا روح فيه ولا حرارة سوى تلك الأنفاس التي يتنفسها وكل ما استطاع عمله في هذه الليلة هو الأكل وضمي إلى

صدره حتى الصباح، حيث استيقظ وتناول إفطاره وخرج للعمل وصعدت أنا للعمل في منزل البيه وفي المساء تكرر نفس المشهد السابق، وتأكدت أنه لا يعرف في دنياه سوى الأكل والنوم، والزوجة تعني له ست تقوم بالطهي والنظافة وغسل الملابس فقط. كان الموقف أصعب من تحملي:

كيف أحرم نفسي من حق الحياة كأي امرأة؟.. حملت شكواي إلى ربة المنزل الذي أعمل به وقامت بنقل شكواي إلى البيه الذي استدعاني وكال لي السباب والشتائم واتهمني بقلة الأدب وطلب مني عدم التفكير في مثل هذه الأمور ثم قام بتوجيه زوجي ضدي وحرضه على شكمي، وعندما عدت إلى حجرتي في المساء وجدت زوجي يحمل عصا غليظة ينهال على كل جسدي بالضرب ثم جلس وطلب على العشاء فذكرته بحقي في أن أكون أما ككل واحدة وأشعلت وابور الجاز ورحت أعد العشاء وكانت ساقي مكشوفة ففوجئت بزوجي يمسك بالعصا مرة أخرى ويريد ضربي ولم أجد أمامي سوى وابور الجاز فقذفته في وجهه وأمسكت به النيران وظل يصرخ حتى خارت قواه وسقط على الأرض فاقدا وعيه.. واستعنت بالجيران لإطفاء النيران ونقل زوجي إلى المستشفى حيث لفظ آخر أنفاسه، ووجهت إلي تهمة القتل العمد وقضت المحكمة بالسجن ١٥ عاما أشغالا شاقة).

واذا كان البحث الجنائي مع تكرار الجريمة ورصدها كظاهرة؟! أصبح يقول في جرائم القتل المتبادل بين الزوجين، ابحث عن الرجل الثانى وابحث عن المرأة الآخرى، أي ابحث عن الجنس والعشيق

والعشيقة؟! إلا إن هذه الجرائم من أعقد وأصعب جرائم القتل على أجهزة البحث لأنها جرائم مركبة فيها الجنس والدم في قبلة ممنوعة، فيها العشق الحرام، جرائم بلا مسرح جريمة، أو بمسرح جريمة مشوه، أو بدون جثة أو بجثة مشوهة، ثم أنها تبدأ بفلان غائب أو فلانة غائبة أي بدون اتهام جنائي وبمنتهى حسن النوايا؛ فهناك مدة لا تقل عن ٧٢ ساعة الأجهزة الأمنية تتركها لعودة الغائب بدون إجراءات وبعدها تتحرك وهي مدة كافية لطمس وتغيير آثار أي جريمة؟!

وفي جرائم القتل العادي يصبح الأقارب والزوج والزوجة هم أصحاب المصلحة والمبادرين بتقديم المعلومات للأمن، أمَّا في جرائم قتل الأزواج والزوجات، فالكل مصاب بالخرس، بل هم وهن في حرص على تضليل العدالة، وفي أبسط صورة على إخفاء المعلومات عن المباحث. ويقال بعد ذلك إن جرائم الزوجات القاتلات أكثر صعوبة، فالرجل حين يقتل يكون عنده دوافع دينية وخلقية للاعتراف بجريمته كأن يقول قتلتها لعرضي لشرفي، وهي قيمة كانت ولا تزال مهمة وهو ما لا يتوفر للزوجة القاتلة؟! هذا بالإضافة أن القانون المصري يترخص مع الزوج في جرائم الشرف فيستخدم النزول بالمادة ١٧ عقوبات، فتكون عقوبة قتل الزوجة في جرائم العرض أو الشرف "الحبس" في حين أن القانون يتعنت ولا يخفف العقوبة تحت أي ظرف مع المرأة، فالزوجات القاتلات عقابهن الإعدام أو المؤبد. ولا تتدخل المادة ١٧ عقوبات للتخفيف عند قتل الزوج الخائن!!

إذن التحول الاجتماعي والقانوني في حياة المرأة والمجتمع استوجب النظر في التطور الذي لحق جريمتها الأساسية، وهي مخالفة الأخلاق الجنسية، وهو ما اصطلح عبر الدراسات القديمة والحديثة في علم الإجرام على تسميته بـ (العهر)، على أنه مما يجدر بالذكر أن العاهرة بالمعنى الصحيح (والتي جرى علماء الإجرام على نعت سلوكها بالعاهرة) هي تلك التي تعول على العهارة في سبيل المطالب الأولى والجوهرية للعيش، وإنما تلحق بهذه العاهرة أخرى لا تعول على العهارة في سبيل الأوليات وإنما في سبيل الكماليات، وكل منهما ممن يمارسن الغرام (على سبيل التجارة) وهناك نوع ثالث من النساء المنحرفات في سلوكهن الجنسي، تتميز المرأة فيه بأنها صائدة للرجال لا في سبيل المال وإنما في سبيل إرضاء شهوة جنسية جامحة،كما أن هناك نوعا رابعا يصطاد الرجال في سبيل إشباع انحراف يبلغ حد الفساد الجنسي المرضي فلا يتصور ما يفعل هؤلاء إذا تصادف وتزوجن؟! وبخاصة هذان النوعان الثالث والرابع فهي فئة تمارسن الغرام، على سبيل الرياضة، وبالتالى الإخلاص الزوجي ليس في طباعهن، يرتكبن الجنس بالطبع، ولكن إذا ضبطوا ارتكبن القتل بالصدفة لا عن عمد أو تربص؟!

وجرى علماء الإجرام على تسمية العهارة الخاصة بهذين النوعين مضافة إليها عهارة الساعيات وراء الكماليات "بداعرات بالطبع" فلم يفت القدامى من علماء الإجرام تقسيم الداعرات إلى: داعرات بالطبع وداعرات بالصدفة (على نحو ما فعلوا بالنسبة للمجرمين والمجرمات)

فمن الداعرات من انزلقن إلى الدعارة لأسباب ترجع إلى الداخل أكثر مما ترجع إلى الخارج، ومنهن من انزلقن إليها لأسباب خارجية أكثر منها داخلية كالأسباب الاقتصادية والعائلية. وحتى في الحالة الأخيرة، فالعاهرة – وإن فسقت تحت ضغط العوامل الاجتماعية السيئة – لا تخلو هي الأخرى من خصال نفسية داخلية معينة كان لها في الفسق نصيب إلى جانب تلك العوامل الاجتماعية الخارجية،كبعض نواح من الشذوذ الذهني والشذوذ في ملكة الإرادة، مثل الذكاء الضعيف، والنقص في قوة الانتباه والخلل في طريقة التفكير، وسرعة التصديق، وسهولة الانسياق وراء إيحاءات الآخرين، ووازع خلقي له وجود ولكنه لا يقاوم الإغراء بالانحراف عن سواء السبيل.

ويقال إن النساء المجرمات يتلقين الحماية من الرجال، حتى ولو كانوا ضحاياهن فهم أقل ميلا للشكوى للسلطان، ثم إن النساء هن في الغالب المحرضات على الجرائم التي ارتكبها الرجال، وبهذه الصفة فإنه يصعب اكتشافهن، فالمرأة لا تقذف الحجر بنفسها، وإنما يقذفه الرجل بسببها هذا فضلا عن حقيقة متكررة لاحظها المتخصصون وهي أن أغلب ضباط الشرطة وكذلك القضاة والمحلفين يكونون أكثر مرونة ورقة نحو النساء مما هم نحو الرجال!! لذلك فلا بد أن يتم التقدير الحقيقي لإجرام النساء بالاستعانة بالمصادر غير الرسمية. ومن الذين اهتموا بتحديد الحجم الحقيقي لجرائم النساء (مارشيه) الذي تبين له أن المرأة فضلا عما ترتكبه من جرائم معلومة تلعب دورا فيما يسمى بالجرائم

الخفية يبلغ ١٠% في السرقة، ١٥% في جرائم القتل، و٤٠% من جرائم الآداب.

وفي إيطاليا ظهرت قصص "الديكاميرون" وكلها تحكي عن لحظة دهاء لنساء خائنات إنه "كيدهن"؛ فالمرأة الخائنة لم تعد مستسلمة تاركة أمرها للظروف، بل فاعلة، وقاتلة؛ ففي حكاية "المرأة المنتصرة" يقول إن رجلاً علم بخيانة زوجته، فتركها تذهب للقاء عشيقها وتظاهر بالنوم، وعندما عادت وجدته قد أغلق الباب من الداخل، فأقسمت بأن تلقي بنفسها من البئر المجاور للبيت حتى يسامحها، وسمع الزوج بالفعل صوت ارتطام بقاع البئر، فهرع إلى الخارج لإنقاذها، ولكن الخائنة كانت ذكية فألقت حجراً في ماء البئر، أحدث الصوت الذي أزعج زوجها، وعند خروجه عادت للمنزل وأغلقت الباب ونادت على الجيران وقالت لهم: "يا ناس.. يا هوه.. يرضيكم أن يتركني هذا الزوج الظالم وحدي ويذهب ليحتسي الخمر في الحانات وها أنا أعلمكم بحاله حتى تشهدوا!!" ويأتي الزوج من البئر مبلولاً يريد التدثر فيصدقها الجيران ويعتقدون أنه انزلق في البئر من أثر الخمر!

وشاء التاريخ أن يظهر الكاتب الفرنسي بلزاك ككاتب له اهتمامات بالحب والجنس والقتل ويضع هذه الاهتمامات في الرواية، وعلى يد "بلزاك" ظهر ثالوث العلاقة بين الرجل والمرأة، فلم يعد الرجل والمرأة فقط، فقد ظهر الرجل الآخر والمرأة الأخرى. وقرر "بلزاك" أن الجنس بين أبناء الطبقة النبيلة جعل للعلاقة بين الرجل والمرأة عدة أشكال: (الزواج الشرعي

– الزنا والبغاء – العلاقة غير الشرعية) إذا ما ظهر في حياة الزوجة حب آخر. وكان أسوأ ما قاله "بلزاك" إن الحب أيضاً يموت أو لا خلود في الحب وهذه هي الخطورة أو هذا هو العذاب. ولأن الحب يموت والجنس لا يموت أو الرغبة المحمومة لا تنتهي جاءت كل التحذيرات والنصائح ضد الجنس حتى لا تخرب البيوت وتضيع الأسر وظهرت عبارة: الألفة – العشرة – المودة.. إنها نفس العبارات التي نقولها إذا ظهرت المرأة الجميلة، أو الرجل الوسيم في حياة أسرة. قالها قبلنا (آدم) (لقابيل) ولم يسمعه.. حين وقف قابيل لأخيه هابيل بالمرصاد، فلا توجد على الأرض إلا فتاة واحدة جميلة هي أختهما (السوسن) الناعمة، جاءت في بطن واحدة مع قابيل وآدم يرى أنها لا تحل لقابيل ولكن تحل لهابيل. وقال قابيل لآدم: "لا تفضله عليّ" وقرر آدم أن يجعل الحكم لله، وقدم كل منهما للرب قربانا ليرضوه ويرجوه أن تكون الفتاة له – وقيل قبل الرب عطية هابيل، أو كان الرب مع الشريعة فلا يجوز للأخ الزواج من أخته – واعترض قابيل.. وقتل قابيل أخاه هابيل، وجاء الغراب يعلمه كيف يواري سوءة أخيه – "أي كيف يدفنه ويداري عورته" – ؟!

ثم جاءت شهادة د.عادل صادق أستاذ الطب النفسي التي سجلها في رسالة الدكتوراه الخاصة به "القتل والقتلة، والجريمة"..

قال: "الرجل يقتل أحيانا للحصول على المرأة، أما المرأة تقتل من أجل الرجل على طول الخط، ولو راجعت جرائم المرأة في الأعوام العشرة الأخيرة لوجدت أن أول امرأة قطعت زوجها ووضعته في أكياس

كانت تريد رجلا، وأن من قتلت زوجها وولدها كان ذلك من أجل رجل، وأن الإسكندرانية التي قطعت زوجها ووضعت نصفه في حقيبة وألقت بالنصف الآخر في الملاحات كانت تريد رجلا، وإذا كانت إحداهن تنكر متذرعة بأنه يعذبها أو يبتز نقودها أو.. أو.. فكل ذلك حتى لا تضيف إلى جريمة القتل عار الخيانة، وهي أولا وأخيرا تضع نفسها في حالة دفاع شرعي عن النفس أو المال أو المتعة فتقدم على جريمتها راضية!!"

وكأن الحب والعشق والرغبة والغرام صندوق (بندورا) الإغريقي الذي إذا فتح خرجت منه كل الشرور.. إن كل هذا كان التمهيد للقتل، لطرطشة دم بين الرجال والنساء بدأت بشهريار قاتلا عن طريق مسرور السياف ووصلت لملكة حقيقية (شجر الدر) التي تَقتل زوجها (عز الدين أيبك) بالقبقاب؟! وتُقتل بنفس الطريقة قتلتها "أم على" الزوجة الثانية "لأيبك" التي تقتلها وترميها عارية من فوق أسوار القصر وتتركها للعامة تنهشها وتنتهك حرمتها؛ فقد كانت شجرة الدر تلف أساورها وعقودها حول مكان تعتقد أنه يستحق، حول وركيها! ويقال أنها كانت تقلد الأمازونيات؛ فمن الأساطير التي تشير لصراع الرجل والمرأة، أوللمرحلة الأممية في حياة البشرية حيث كانوا ينسبوا البشرية للأم وليس الأب، أسطورة إغريقية متداولة عن "النساء الأمازونيات"، وهي قبيلة من النساء المحاربات وبسبب عدواتهن للرجال، أسسن عددا من المدن الحريمى، لا رجال فيها ويعبدن فيها إلهة أنثى هي (أرتميس) فلهن مجتمع قائم على النساء وحدهن، فإذا أردن الإنجاب أتين بلادا مجاورة فضاجعن الرجال وعدن من حيث أتين. حتى اذا وضعن

مواليدهن قتلن الذكور في المهد وأبقين على الإناث ويقال إنهن يقطعن النهد الأيمن من الصدر ليستطعن استعمال القوس بسهولة، وبالتالي يتزين بوضع الأعقاد (جمع عقد) على الساقين، ويقال أنهن أول من لبس الخلخال أسفل القدم. وحتى الآن في اليونان يسمون المرأة الغاضبة أو الشعنونة أو العصية لزوجها: "أمازونية".

في الصحافة .. المصائب والمشاكل هي ملح الحياة

يظل السياف مسرور يسكننا حين نكتب
سواء كنا ببيوت الطين والصقيع،
أو في شقق السجاد والسيراميك؟!

في كتاب الصحفي الفلسطيني ناصر الدين النشاشيبي (قصتي مع الصحافة) كنت عملت بمصر في ظل المد الثوري، وعينت واحدا من رؤساء تحرير جريدة الجمهورية، وكانت الرقابة على الصحف صارمة، وكان هناك رقيب عام يتبع وزير الإرشاد، وكان له مكتب مهم، يسمى مكتب (الصحافة) كان يتلقى تعليمات ما ينشر وما يمنع، من مكتب عبد الناصر ومن هيكل، وكان يستحيل لأي صحفي أن يسافر للخارج بغير إذن مباحث أمن الدولة، التي كان لديها قائمة سوداء بالممنوعين من السفر تتضخم كل يوم. وعلم عبد الناصر يوما وهو يحضر مناورة عسكرية بأن على أمين صاغ لعبد اللطيف البغدادي "استقالة للبغدادي في طريقها له" فأمر بالتليفون بنقل علي أمين من رئيس مجلس إدارة دار الهلال لصحفي في أخبار اليوم تلك المؤسسة التي كان يمتلكها وأخوه مصطفى أمين قبل التأميم، وقد أدمت قلوب الصحفيين، واقعة أخرى فصل فيها عبد الناصر شيخ الصحفيين المصريين "فكري أباظة" بعد أن كتب سطورا عن الحرية والديمقراطية لا تزيد عن عشرة سطور في بابه (الجاسوسة الحسناء).

كأنني أقرأ ما كتبه أنيس منصور عن نفسه حينما جاء في الخبر نفس الكلام، ونفس النتيجة. لقد حضر له علي أمين وقال له: "إن المصائب والمشاكل هي ملح الحياة"، فقال: "ما الجديد؟".. قال له: "أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قرارًا بوقفك عن العمل!!" شيء واحد كان هو الفرق أن من جاءني، وقال لي: "إن المصائب والمشاكل هي ملح الحياة، نقلت إلى قنا، هذة طبيعة العمل بالداخلية كان يعرف سبب ذلك؟! فهذه طبيعة العمل بالداخلية؟! أما علي أمين فقد كان لا يعرف فقط عليه أن ينقل الخبر لأنيس منصور! فلقد كتبت وأنا (ضابط شرطة) كتابًا صغيرًا في ١٦٠ صفحة عن المعارضة ووصل بخصوصه تقرير للوزير السيد زكي بدر، وقلب الرجل صفحاته، ويقال طلب الكتاب ووجد به كاريكاتيرا منقولا ضده، وكان الكاريكاتير يمثل شومة غليظة يقف لها طابور من ضباط الشرطة يلقون عليها التحية العسكرية، أما رأس الشومة فهي رأس زكى بدر نفسه. وبسرعة كتب على تقرير عن الكتاب" ينقل للصعيد ولا يرجع إلا بعد العرض علينا شخصيا".. واختاروا في شئون الضباط لي (قنا) واعتبر القرار ساريا أربع سنوات، ضعف المدة المقررة في الصعيد لأي ضابط "شرطة" بوليس، ومرت السنون الأربع العجاف قضيتها بين قنا والأقصر ولم أرجع!! لقد نفاني السيد الوزير، ولم يرحمني إلا اختلاف الظروف وتغير الوزراء! وحين ترك الوزارة أصبح قراره كأن لم يكن. ولكني حتى الآن لا أعرف ما الذي أثار الوزير، وما الكلام الذي نقل إليه؛ فالكاتب مشغول بكلمته فقط، وغير مسئول عن غلاف الكتاب وإخراج الكتاب.. هكذا تشترط عقود الكتب في العادة منذ

١٩٨٨ وللآن. والناشر (إسماعيل عبد الحكم) صاحب مكتبة العربى للطباعة والنشر، هو صاحب فكرة كاريكاتير مع كل فصل من الكتاب.

والغريب أني ذهبت بالكتاب لأنيس منصور وقدمت له نسخة فقلبها وقال: "أنت تعرف أني أديب يشتغل بالصحافة، ومليش تقل على السياسة، أرسله لمصطفى أمين وسيفرح جدا"، وفعلت ذلك وأنا في قمة الاستغراب، فقد بدا له وكأني مدسوس عليه بكتابي!! وكتب عن الكتاب مصطفى أمين في فكرة، ولم يذكر حرفا عني؛ ففي البداية فكر أن يستخدمني والكتاب للتشنيع عن الديمقراطية بمصر، ولما حكيت له حكايتي قرر أن ينقلب على وزير الداخلية. وقلت له: "أنا لا أريد ذلك ولا أحبه، وكفى ما أنا فيه.."

ووافق.. فقد كنت أعرف أني موظف عام ونقلي من انطلاقات الإدارة التي يجوز أن تلجأ إليها للصالح العام – دون أن تقرر ما معنى الصالح العام؟! وما هي أهميته أو ماهيته؟ !بل أن هذا الوضع مقرر لا في مصر وحدها بل في معظم بلاد العالم، فهناك مجموعة من الوظائف تسمى "وظائف رهن تقرير وإشارة للدول" يلتزم فيها الموظف بالولاء الكامل في كل ما يصدر عنه لسياسة الدولة. ومن هذه الوظائف"الشرطة"

وفي فكرة مصطفى أمين: (جاء لي كتاب جديد عن المعارضة يعيد تذكيرنا بما قد نكون نسيناه، فيربط بين الديمقراطية والمعارضة، ويوضح لنا مهام المعارضة، ويبين الفرق بين المعارضة البرلمانية والمعارضة الشعبية، ولا يترك المعارضة (سداح مداح)، وإنما يضع عليها ضوابط، إنه

يتكلم عن المعارضة "المشروعة أو المشروعية" فهو ضد المعارضة السرية والتحتية والمليشيات المسلحة. ولأن السلطة عندنا كما يقول "نزار قبانى" لم يقل لها أحد قط "كلا"، وإنما ضربوا لها طبلة، ونفخوا لها نايا، ومسحوا لها جوخا، ولحسوا لها نعلا.. يأتي كتاب صغير ليقول "كلا"؟! إنه كتاب جدير بمكتبة كل حزب)..

وشغلت نفسي مثلما شغل نفسه أنيس منصور أبحث هل الديمقراطية ضد توجهات الدولة، هل حرية الرأي تعادي الحكومة؟ هل كلمة معارضة مؤلمة هكذا لوزير الداخلية؟! ولكن أنيس منصور ليس من هذه الوظائف، فالصحفي ليس رهن الدولة هو فقط نسي أنه موظف عام حتى ولو كان صحفيا فهو في مؤسسة تابعة للدولة، وجورناله مؤمم وعليه رقيب رسمي وخرج عن أقل ما يطلب منه "التحفظ الوظيفي" فقد قال له "محمد فهمي" مستشار رئيس الجمهورية أن السبب في قرار الفصل ما كتبه عن "الوحدة والعزلة" وأن هناك تقرير قدم بأن هذا المقال به تعريض للسيد جمال نفسه.. ويقول أنيس منصور: "أنا أعرض بالرئيس؟" ولكن يبدو أن الرئيس جمال عبد الناصر كان شديد الحساسية للانفصال الذي وقع بين مصر وسوريا، فقد كانت سوريا هي حبه الوحيد، فلا أحب قبلها ولا بعدها أحدا، فكانت سوريا معشوقته الخائنة!

كان الرئيس حساسا من سوريا مثلما كان الوزير زكي بدر حساسا من المعارضة، فيأتي له ضابط من رجاله برسالة ماجستير عن المعارضة، وبالتطبيق على الوضع في مصر ويصبر الوزير وفي عيد العلم لا يمنع تقديره

وتكريمه، مثل كل الضباط الحاصلين على ماجستير ودكتوراه، ولكن أن ينشرها وفي كتاب، وبكاريكاتير يعرض به شخصيا، ويقول: يجب؟! والديمقراطية بتقول! فلا أظلته سماء ولا حملته أرض، وليس له إلا قنا.

ولم يقتنع "أنيس منصور" واستمر يبحث عن سبب وقفه عن العمل حتى جاءه زميله وبلدياته محمد المصري، وقال له: "يا أخي احمد ربنا أنك وقفت عن العمل فقط ولم يقطع لسانك، ألست أنت الذي قلت أن الرئيس عبد الناصر لن ينسى امرأتين: واحدة من المنصورة رفضته وواحدة من دمشق خانته؟!"

– قلت هذه القفشة.

– نعم قلتها في بيت مصطفى أمين.. فمن الذي نقلها؟

وأتذكر عند تعيين الوزير زكي بدر.. أني قلت: هو مكسح لا سمح الله حتى يعينوا له وكيليين؟ ففي سابقة لم تتكرر جاء هذا الوزير ومعه وكيلان أحدهما من الأمن العام "فاروق الحيني" والثاني من أكاديمية الشرطة "د. عبد الكريم درويش" فمن سمع ومن نقل؟ قلتها بمنزلنا وبين أهلي، أهم أم للحيطان آذان تسمع فراحت تقول؟!

ويقول أنيس منصور: كنا في دار الهلال نعمل بحرص، فالرئيس لم يسترح ولم يطمئن، ومن الممكن أن يصدر أي قرار. وكان د. عبد القادر حاتم وهو رجل لطيف رقيق يطالبنا بضبط الأعصاب والهدوء والانصراف إلى أعمالنا، وكل شيء ممكن إصلاحه بعد ذلك. وفي يوم وجدت

مصطفى أمين في حالة غضب شديد قال لي: أنت مجنون؟! مؤكد مجنون.. هل تعرف ماذا فعلت؟" قلت لا.. ووجدت أمام مصطفى أمين المقال الذي كتبته تعليقًا على خطاب الرئيس وعلى ما جاء فيه خاصًا باحترام العلم والعلماء فقلت: أنا علقت على كلام جميل قاله الرئيس. أما الغلطة البشعة التي ارتكبتها فهي أنني اقتبست بعض عبارات الرئيس. العبارات كانت بالعامية فجعلتها بالعربية الفصحى.. لم أغير شيئًا.. ولكن مصطفى أمين قال: إن الرئيس يتضايق من مثل هذا التصرف..كلمات الرئيس يجب نقلها وكتابتها كما قالها تمامًا.. وإن كلامه كالقرآن لا تبديل لكلماته! ويقول أنيس ولم أصدق، ولكنه وضع أمامي نص خطاب الرئيس لكي أنقل الفقرات بالعامية، وكانت طباعة "المصور" قد توقفت تمامًا.. وتمزقت ألوف النسخ التي طبعت بها كلمات الرئيس بالعربية الفصحى. وعاد مصطفى أمين يؤكد جنوني: تستطيع أن تنقد الرئيس ولكن لا تغير كلمة واحدة مما قال..

وتهته أنيس منصور: أستطيع أن أنتقد الرئيس؟! أنا.. هو؟ أي أحد؟! طبعًا لا أحد يستطيع فالذي قاله كلام جيد ومن العدل الإشادة به وتحيته، ولست في ذلك منافقًا، ولا هو في حاجة إلى مثل هذا النفاق، فالذي عنده يكفيه ويفيض.

ومثلما فعل أنيس منصور، فعلت، فقد ترك كفه لقارئ الكف ليعرف متى يعود للكتابة، متى يتنفس. وقال له محمد جعفر خبير الكف: وحياتك لا أنت مسافر ولا أنت هارب.. وإنما سوف تعود إلى أخبار

اليوم وتستأنف عملك كأن شيئًا لم يكن.. وقالت لي قارئة فنجان وهي تتأمل فنجاني المقلوب، وحياتك..لتكتب١٩ كتابا، وتلف محافظات الجمهورية حجر داير لا ينبت عليه عشب

وجاء من يقول لأنيس منصور بعد الذي كتبته ليس لك عيش بمصر هاجر – لماذا؟

– لأنك قلت أن الشيخ عبد السلام باع المماليك حكام مصر ليسدد ديون مصر، فعرضت بالجميع.. أنسيت اسمهم إنهم الأحرار؟.

نفس الشيء حدث لي، جاء من يقول عرضت بكتابك للديمقراطية ففضحت الداخلية..

ووقفت في لجنة التظلمات وسمعنا هذا الخبر لا يوجد هذا العام تظلمات؟ كيف؟ لقد قرر هذا الوزير؟! والمعنى؟ النقل ساري بلا نقض ولا إبرام!! ولم تفتح في سنة ١٩٧٩ لجنة تظلمات رجال الشرطة أبوابها تمامًا مثلما حدث من قبل حيث طلب من لجنة الإعلام بالحزب الوطني ألا تفتح فمها، فقد وقف رئيس اللجنة وقتها المرحوم الصحفي صلاح جلال، وقال للرئيس السادات: "إن لدينا بعض ملاحظات على حكاية منع مصطفى أمين من الكتابة" ولم يكمل كلامه، ثار السادات، وقال: ملاحظات و(لدينا..) وفي غضب وانفعال صرخ: لا..أنت متنفعنيش أنت لازم تطلع من الحزب.. أنا مش عاوز ناس يقولوا ملاحظات ولدينا والحاجات دي، وبعدها قفلت لجنة الإعلام فمها بالضبة والمفتاح؟

ويقول الصحفي محمد رجب في كتابه (ما لم تنشره الصحف) وفي أمريكا تعرض "السادات" لحرج، بسبب "مصطفى أمين" التقى بالصحفيين بواشنطن وقال في حديثه لهم أن الديمقراطية في مصر أصبحت كالديمقراطية في الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا.. وقال له صحفي أمريكي آخر:"نيكسون" لم يستطع أن يطرد صحفيين) شابين من جريدة الواشنطن بوست فجرا فضيح "ووترجيت" ولكن الصحفيين الشابين اللذين طردا رئيس الجمهورية وأجبراه على الاستقالة.. ولم يعلق السادات على حديث الصحفي الأمريكي، لكنه بدأ يستشعر بجدية الأمر، وخطورة حرمان مصطفى أمين من الكتابة.. القضية تجاوزت حدود مصر إلى أكبر دولة في العالم.. تجاوزت رغبته في إرضاء أعضاء مجلس الشعب الغاضبين إلى رغبته في عدم تشويه صورته أمام المجتمع الغربي والبلدان الديمقراطية والولايات المتحدة بالذات، حيث حقق هناك أكبر شعبية حظي بها رئيس عربي في أمريكا على مر التاريخ.

أحس السادات أن قضية مصطفى أمين جعلت منه رمزًا لصحافة مصر، ومدى ما هو مسموح فيها من ديمقراطية حرة. وأثناء عودة السادات من أمريكا للقاهرة كانت مفاجأة، خرجت السيدة جيهان السادات قرينة الرئيس من صالونهما المغلق بالطائرة، واتجهت إلى الصحفيين قائلة لهم عندي خبر سيسعدكم.. الرئيس أرسل (تلكس) من الطائرة لدعوة مصطفى أمين على فرح جمال السادات، ومعنى ذلك أنه سيأمر بعودته للكتابة، وشكرها الصحفيون في سعادة.. وشكروا أيضًا دورها في إقناع السادات بذلك.

أما السبب في إيقاف مصطفى أمين أنه غضب بالكلمات – جعل الكلمات تثور في مظاهرة ضد أعضاء مجلس الشعب الذين هرولوا إلى الحزب الوطني لأن رئيسه السادات وتركوا حزب مصر – لأنه أراد أن يقول (لا) التي كتبها رواية في (فكرة)، طالب هؤلاء الأعضاء بالاستقالة أولاً ثم التقدم في الانتخابات من جديد على أساس الحزب الوطني، لأن الجماهير قد انتخبتهم يحملون أفكار حزب مصر. فقرر السادات أن يدخل الكلمات المعتقل، منع مصطفى أمين من الكتابة حتى قصة (سنة أولى حب) التي كان يكتبها مسلسلاً في أخبار اليوم كل أسبوع وقفت وكانت هذه أول مرة يدخل قلمه السجن أما هو فيعيش خارج الأسوار!! فالسلطة ترى أن مهمة الكاتب هي أن يهدي الشعب الورد والأمل، ويخترع لهم الشمس، وهذا صحيح ولكن وظيفة الكاتب أيضًا أن لا يكون شاهد زور في عصره، ولذا تلجلجت "همت مصطفى" في برنامج تليفزيون مع الرئيس "السادات" من ميت أبو الكوم حينما قالت له: لقد وعدت الناس بالرخاء هذا العام.. وقبل أن تكمل السؤال؟ قال لها: يا بنتي يا همت ما الرخاء جه!!"كانت هذه اللجلجة بسبب أنها تجاوزت الخط الأخضر من الورد والأمل إلى رفض الشهادة الزو.

وليس السادات أو عبد الناصر أو زكي بدر إلا صورا من العربي الجميل في مواجهة الكلمات فأنا أكتب عنهم في أمان نعم نقلني ولكنه تركني أعيش، لم تعجبه رسالتي في المعارضة ولكنه لم يحرمني من علاوة الماجستير. نفاني لقنا ولكن "قنا" ليست عذاب النار. فآخر الأخبار أن

سكرتيرة صدام حسين نشرت لها دار مصرية مذكراتها فخطف رجال صدام ابنها، لأنها كشفت في مذكراتها أن صدام طلق زوجة من زوجها ليتزوجها، فلم تكن قصة فيلم الزوجة الثانية من الخيال!! وتقدمت لمأمور مدينة نصر في محضر رسمي تطلب حراسة على بيتها بشارع سيبوية بمنطقة رابعة العدوية!! ومنع أو خاف الناشر من عمل طبعة أخرى!! عرفوا يكسروا جناحها، ويوقفوا أمانيها ككاتبة تفرح بالطبعة الثانية والثالثة من كتابها. أي أن العربي القبيح في مواجهة غضب الكلمات موجود أيضًا وهناك الكلام بالكلاشنكوف ضد الصحافة والقلم والحبر.

فحضور السياف مسرور في المجتمع العربي ليس حضورًا خرافيًا أو روائيًا، ولكنه حضور مألوف ويومي، إما أن تقول شهرزاد ما يريد السلطان أو يقتلها مسرور. والقول قد تغير شكله فأصبح مكتوبًا : إما أن تكتب ما يريد شهريار أو تفصل أو تنقل، ولذا سيظل السياف مسرور يسكننا جميعًا تحت الجلد حينما نكتب في بيوت الطين والصقيع أو في شقق الموكيت والسيراميك. إذا لم تصدق فارجع إلى كتب التاريخ : ابن المقفع كاتب (كليلة ودمنة) لم يفصل فقط من الوظيفة بل قطعت ساقاه وألقيتا في النار حتى يراهما بعينيه تحترقان قبل أن تضرب عنقه، والحلاج جلد ثم قطعت أطرافه ثم ضرب عنقه!! أما السهروردي فقد منع عنه الطعام والماء ومات صبرًا في قلعة حلب، ولذا وجدنا كاتبا إسلاميا كبيرا، وهو (الماوردي) حينما وضع كتابه "الأحكام السلطانية" أوصى ألا ينشر إلا بعد مماته فقد كان سيف مسرور يؤرقه؟!

الحديث عن قضية المرأة يهمش كل القضايا الأخرى

قال مصطفى أمين لأمينة السعيد: إلبسي المايوه،
واذهبي لحمام سباحة الحريم بسان ستيفانو..
وستجدين هناك كل أخبار مصر؟!

عملت مع الأستاذ حسن عامر الذي كان يشرف على مكتب جريدة الأنباء الكويتية في القاهرة، مكتب جميل بالعجوزة يطل على النيل. تبناني الرجل وبعين فاحصة كان يطلب مني الأعمال التي تجمع بين (البحث والصحافة) فهو يريد أن ندخل الأرشيف ونعاود البحث والتنقيب عن القديم في الديسك الصحفي ثم نبعثه خلقاً آخر برؤية جديدة الخبر الطازج كان موهبته، فهو لا ينتظر الخبر بل يصنعه؟!

وهو تأتيه الفكرة ويقول: (دوروا وقولولي هل هذه الفكرة حقيقية، أو أضغاث أحلام ؟!)

وفجأة استدعاني (حسن عامر) وقال: خذ هذه الأوراق إنها أرشيف (أمينة السعيد) ادرسه واذهب لتذكرها به، فقط ذكرها به وستسمع العجب؟! وبعد يومين جاءني تليفون منه، عدل الفكرة ووضع (قضية المرأة) كعنوان فوقها، قال أدير جدلاً بين أمينه السعيد، وسهير القلماوي حولها.. سلام؟! أما سبب التعديل أنه قرأ هذه العبارة لمصطفى أمين: (انقسمت الجامعة إلى حزبين: حزب ينتصر للآنسة سهير القلماوي الطالبة بالسنة الثالثة بكلية الآداب وتلميذة

طه حسين المفضلة، وحزب ينتصر للآنسة أمينة السعيد الطالبة بالسنة الأولى بقسم اللغة الإنجليزية)، وتركني الأستاذ حسن عامر لحيرتي!!

وجاءت البداية هكذا صدر كتاباً استفزازياً من عنوانه ومن ورقته الأولى للأخيرة الكتاب يدين الحركة النسائية المصرية وعنوانه "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار" وقال لي رئيس التحرير حسن عامر اعمل له عرض، وكان الأستاذ مهتما بتقديم مادة الكتب ذاتها بملاحق الجريدة سواء نقدا أو عرضا، ويقال أنه ورث ذلك الاهتمام من مدرسة الأستاذ "محسن محمد" في جورنال الجمهورية.

ولخصت الكتاب ونشرناه في الملحق الأدبي: يقول فيه المؤلف: "كانت الدعوة إلى هتك الحجاب وتقييد الطلاق ووقف تعدد الزوجات هي إحدى النغمات التي عني بها المستعمر وراح ينشرها لإضعاف المسلمين والقضاء على سر تفوقهم، ثم استشهد بما قاله "طلعت حرب" إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوروبا من قديم لغاية في النفس ضد الإسلام، وإنه لذلك لم يكن عجباً أن تكون الحركة النسائية في مصر. وهي تهدف في جوهرها إلى تغيير النظام الاجتماعي للأسرة – المسلمة – وثيقة الصلة بهذا الاستعمار حتى أن "درية شفيق" أسست حزب (بنت النيل) ومجلتها الشهيرة التي بنفس الاسم، من أموال السفارة البريطانية في مصر! بل أنه يتهم قاسم أمين من أنه تلقى تعليمات في صالون الأميرة نازلي فاضل، وثيقة الصلة باللورد كرومر المعتمد البريطاني، بوضع كتابه (تحرير المرأة) وهو في نفس الوقت يعتبر صالونها

ضد الآداب والتقاليد الإسلامية حيث سمح بالاختلاط فيه والسهر حتى ساعات متأخرة من الليل!! ثم أنه يدين الاتحاد النسائي المصري الذي كونته هدى شعراوي ١٩٢٤ لأنها ابنة "محمد سلطان باشا" الذي كان يرافق جيش الاحتلال في زحفه على العاصمة أيام ثورة عرابي، وبعد فشل هذه الثورة، بل أنها وضعت فرية غريبة غربية حينما سمحت لنفسها أن تحمل اسم زوجها شعراوي باشا كالغربيين دون أبيها، وأنه يعتقد أن هذا مقصود حتى لا يتذكر أحد مأساة أبيها ضد عرابي!! وأنه لا يعرف سر الاهتمام الإعلامي الأجنبي وقتها بهذا الاتحاد المحلي الصغير حيث (حضرت د. ديدت زعيمة الاتحاد النسائي، وأعلنت مناصرة الحركة النسائية المصرية!!)

ثم بدأت نغمات قاسم أمين تظهر جلية عام ١٩٤٩ حين كونت د.درية شفيق حزباً نسائياً وتطرف حزبها حتى وصل إلى المطالبة بإلغاء تعدد الزوجات وإدخال القوانين الأوروبية الخاصة في الطلاق لمصر، وخاصة القوانين الفرنسية بحجة أن القانون المصري يأخذ في معظمه بالتشريع الفرنسي!! وأن الغرب يعرف أهمية مصر بدليل أنه بعد ظهور تنظيم هدى شعراوي المصري وتنظيمها النسائي ظهر الاتحاد النسائي العربي يحمل مبادئ قاسم أمين وينقل نقلاً عن الاتحاد النسائي المصري!!

وبهذا الكتاب الساخن ذهبت لدار الهلال، وطالبت أمينة السعيد أن ترد، وقد انفعلت بشدة وقالت: هذا الكاتب مكانه مستشفى المجانين، لأنه يهذي بكلام لا يصدقه عاقل وليس لديه أقل معرفة بتاريخنا؛ فأنا عاصرت

د. درية شفيق[3] وأعرف أخلاقها ومبادئها وهي لا يمكن أن تقبل معونة من أي جهة أجنبية وخاصة إنجلترا أو أمريكا كما يقول هذا الكتاب لسبب إنها لم تكن تجيد الإنجليزية، لأن ثقافتها فرنسية حيث قضت سنوات طويلة في جامعة السوربون، ونالت شهادة الدكتوراه من هناك، ثم إنها لم تكن جاهلة بالإسلام أو المرأة في الإسلام فرسالتها الفرنسية موضوعها "المرأة في الإسلام" وقد أثبتت أن حقوق المرأة في الإسلام سابقة وأضعاف حقوقها في أي دين آخر، بل يكفي د. درية شفيق أنها عام ١٩٥٤ كانت واحدة من أهم عشرة سيدات في العالم.

قلت لها: ولكن دكتوراه السوربون عن الإسلام ليست حجة علينا، إنها من إشراف أساتذة مستشرقين، وبخاصة أن درية شفيق تحمل شهادة في الآدب الفرنسية (الليسانس من السوربون) بباريس ولا أحد يعرف

---

[3] درية شفيق أعطت حياتها لقضية المرأة وأصدرت مجلة (بنت النيل) و(المرأة الجديدة وحدث في سنة ١٩٥٤ أن اعتصمت في نقابة الصحفية وأضربت عن الطعام مطالبة ضباط الثورة (بحق المرأة في الانتخاب) وفوجئت السلطات المصرية في ٦ فبراير ١٩٥٧ بـ درية شفيق تدخل السفارة الهندية بالزمالك وتعلن الاعتصام والإضراب عن الطعام حتى الموت وتصدر بياناً ولم يغفر لها عبد الناصر ذلك واتهمتها مراكز القوة بالجنون ولولا تدخل (نهرو) الذي طلب السماح لها بالذهاب إلى منزلها وترك السفارة دون القبض عليها، وتم تحديد إقامتها في شقتها بالزمالك، وضغط على زوجها الثاني د/ نور الدين رجائي فانفصلا .. وتركت (درية) وحيدة.. حتى حينما تغيرت الدنيا ومنحت المرأة حق الانتخاب ودخلت نائبات مجلس الأمة والشعب (البرلمان) وعينت وزيرة وأكثر نسى الناس أول من طالب بذلك. وظلت درية شفيق شبه مسجونة في شقتها بالدور السادس بعمارة وديع سعد بالزمالك لا تزور أحدا ولا يزورها أحد وكتبت (١٦ كتاباً) في عزلتها لم يكشف أحد عنها شيئا!! وفي ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥ لم يعرف أحد كيف ماتت وجدوا جثتها تحت شرفتها.. وقد سقطت من الطابق السادس.

لماذا اختارت هذه الرسالة، بل إن لديها مغالطات عن المرأة المسلمة بدليل طلاقها من الصحفي الكبير أحمد الصاوي محمد، حينما رفضت قوامته عليها في الخروج والدخول حتى ضاق ذرعاً بها وطلقها.. إنها لم تكن تطالب بحقوق المرأة في الإسلام ولكن تطالب بحقوقها في فرنسا

قالت: هل تريد من المرأة بعد أن تتعلم وتحصل على الدكتوراه أن تجلس لتعد العجة لسي السيد، إذا كانت القوامة للرجال فإنها لها شروطها ثم إن العمل للمرأة لا ينكره الإسلام، إننا بحاجة أن يتحرر الرجل وليس المرأة، لأن (قضية الصاوي ودرية شفيق) لا تزال تعيش بيننا أنت نفسك تكمل في نفس الطريق.

قلت: كيف؟!

قالت: لقد عرف الصاوي، درية شفيق وهي (ستار) ومشهورة وصاحبة حزب ورضي عن ذلك وتزوجها عليه، وبه، ولم ير فيها عيبا أو فضيحة ولكنه على طريقة سي السيد طلقها!! المفزع أنني أجد هذه الأفكار الظلامية تعشش في رؤوس عدد لا يحصى من نساء الجيل الجديد، تقول سأدرس وأقعد في البيت بعد الزواج!! هذه الأفكار الرجعية من الردة الدينية في الاجتهادات التي ابتلانا بها زمن التطرف والتيارات الدينية.. أما إذا كانت الأميرة (نازلي فاضل) استطاعت أن تستقطب (قاسم أمين) (والشيخ محمد عبده) وكل عظماء ومفكري مصر، بل وتخرجهم عن الملة كما يقول هذا المجنون صاحب الكتاب فدعني أرفع لها قبعتي!!

وإذا كان الكتاب الساخن قد أغضب أمينة السعيد فانفعلت معه

وخرجت أعصابها وارتفعت نبرات صوتها حادة، متحدية، فإني استطعت أن أعيد لها ابتسامتها بالكلام عن الأدب

قلت لأمينة السعيد: الذين يحبون الأدب من أمثالي يشعرون بالألم لأنك أخلصت للصحافة على حساب الأدب وبخاصة أن روايتك الوحيدة "الجامحة" ومن عنوانها كانت بداية الأدب الروائي النسائي!

قالت: أصدرت رواية (الجامحة) في **١٩٤٦** وكنت وقتها أسير على مقولة "أميرة" بطلة الرواية: (أما أنا فقد رسمت مستقبلي، ولن أغير منه خطا) وقد حول أستاذي مصطفى أمين نشاطي الأدبى للصحافة، وتنبأ بأني سأكون صحفية كبيرة، وبدأت الكتابة بدون اسم، وكتبت عن المرأة في أول موضوع لي من خلال "حمام سباحة الحريم في فندق سان ستيفانو برمل الإسكندرية" وفوجئت بأن أسرار الدولة على لسان السيدات في الحمام وبخاصة أنه كان فيهن زوجات وزراء وكن لا يعمن وإنما هناك حبل يتعلقن به وهات يا رغي!! وأحدث الموضوع ضجة في الدولة والتهمتني الصحافة للأبد حتى أني لم أجد وقتاً لأكتب سيرتي الذاتية كما طالبتني بذلك "لطيفة الزيات"؟! ولكن عيني لم تغب عن كتابات المرأة الأدبية..

واستمر الحوار معي ومعهما، بطريقة "حسن عامر" الملفات التي جمعناها نواجههما بها.

قالت أمينة السعيد: الرئيس عبد الناصر لم يعارض أن أصبح عضو مجلس إدارة دار الهلال، وأذكر عندما أصدر وزير العدل في الستينات

قانوناً خاصاً بالمرأة "الناشز" وضرورة وضعها في بيت الطاعة أن دفعت من جيبي مبلغاً استأجرت به عدد من" الأوتوبيسات"، وكان معي حوالي ٢٠٠٠ سيدة وذهبنا إلى مجلس الأمة وقتها في مظاهرة سليمة وكان الرئيس الراحل رحمه الله أنور السادات هو رئيس المجلس وعندما أبلغوه بالمظاهرة طلب حضور قائده المسيرة فأخذوني له، ودخلت عليه فقال لي: "أنت مين يا شاطرة" فقلت له: أمينة السعيد الصحفية بالمصور، وحضرت ومعي النساء لنحتج على قانون (بيت الطاعة)؛ فقال لي: "ماذا ستفعلن لو تم إلغاء القانون؟" قلت له: سنهتف لكم من قلوبنا ونعرف أنكم أحرار لا تضنون بالحرية على المرأة؛ فقال: "وماذا لو تم إقرار القانون" قلت له: "اطلعوا لنا بره وشوفوا هنعمل فيكم إيه؟!" وضحك السادات ولم يغضب وقال: أعدك بأننا سوف نعيد النظر في القانون، وقد كان وتم إلغاؤه بالفعل. وفي الثمانينات عينني رئيسة لمجلس إدارة دار الهلال فكنت أول سيدة بذلك القرار ترأس مجلس إدارة مؤسسة صحفية كبيرة. وقبلها أول رئيسة تحرير لمجلة (حواء).

إلا أن خلافاً وقع لا أعرف سببه، كنت ضمن رؤساء مجالس الصحف في طائرة الرئيس المتجهة إلى أمريكا وجلس يتحدث عن (معاهدة كامب ديفيد) وقال: أن لديه معلومات موثوق بها أن السعودية ستوافق على المعاهدة، ولكني قلت له: إن معلوماتي تؤكد أن السعودية سترفض المعاهدة. وثار الرئيس ثورة عارمة وشديدة أخرجتني عن وقاري وقلت للرئيس: لا تصدق حملة المباخر!! وغضب علي وألقاني من رئاسة تحرير

المصور ومجلس إدارة الهلال، وصدر قانون بإحالة الصحفيين للمعاش في"سن الستين".. وأعتقد أني المقصودة بالقرار. وطبق علي.

ولأن الاستاذ قال: أدير جدلاً بين أمينه السعيد، وسهير القلماوي، فقد ذهبت لها وبخاصة أن هناك بينها وبين أبي صلة قرابة من بعيد، حتى أن مدافنا كانت واحدة، وسبحان من له الدوام.. ولم ينتب د.سهير القلماوي، شيئا من كتاب "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار" وعلقت بشكل غير مباشر بقولها: المؤسف أن عشرات الكتب من هذا النوع تزحم أرفف مكتباتنا وتباع على الأرصفة ليست في قضية المرأة وحدها بل في الدين والسياسة، وهي كلها مليئة بالافتراءات وإذا منع كتاب منها قامت الدنيا ولم تقعد مع أنه ليس كتاباً وإنما مرض اجتماعي.. وقد قلت أكثر من مرة إن الهدف هو "تأسيس عقل المرأة وليس تذكير هذا العقل".. بمعنى أن أجعلها مؤمنة بوطنها وأن تكون قضيتها كالرجل قضية هذا المجتمع كله بلا تجزئة.. أما الكثيرات فلا يزلن على سياسة تذكير عقل المرأة أي جعل قضيتها خاصة ومتعلقة بالرجل وسائرة وراء كل ما يفعله ويريده.

إنها قضية مهمة ولكنها واحدة من قضايا متعددة في مجتمعنا، ولا يحق أن أعزلها عن القضايا الأخرى فهناك قضية الفقر، والتخلف و.. وبطريقة الفصل، والتجزئة (على الفقراء أن يجعلوا قضيتهم مع الأغنياء هي المطالبة بأكل الكافيار) والحديث عن قضية المرأة فقط يهمش كل القضايا الأخرى وهذا تقليد للغرب، والحقيقة أنه لا توجد قضية للمرأة

في الشرق وقد منحها الإسلام الكثير (حق الملكية والاسم والميراث والذمة المالية المنفصلة ونظم لها العلاقة مع الرجل (هي لها دور ورسالة – وهو له دور ورسالة) وهما يتكاملان ولا يتصارعان إن هذا واضح حتى في الطلاق؛ فالطلاق في الغرب صراع لأن هناك ذهاب للأبد، يقتسمان كل شيء.. أما عندنا فيبقى على الزوج واجب النفقة، وواجب الرعاية للأولاد، لأنه ذهاب ولكنه ليس للأبد!!

قلت لها: ولكنك رغم ذلك توليت رئاسة اتحاد المرأة العربية لفترة طويلة وكما يقول كتاب "الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار" إن هذا الاتحاد صورة لما أنشأته هدى شعراوي وإنه تكريس لكتاب قاسم أمين (تحرير المرأة) بل هو الشكل المعاصر للنسوية الغربية ؟!

قالت: نعم توليت هذا المنصب منذ ٥٦ وحتى توقيع اتفاقية كامب ديفيد سنة ٧٩ وعلقت عضوية مصر فيه، فكان لا بد أن أتركه ولم يكن يضم إلا ١٦ دولة عربية فقط ولم تكن لنا أهداف ولا خطوات (إلا تقارب البلدان العربية عن طريق المرأة) لا أفكار قاسم أمين ولا هدى شعراوي.

قلت لها: عملت مع هدى شعراوي وتوليت رئاسة تحرير مجلة المصرية وهي مجلة الاتحاد النسائي المصري فكيف تكونين رئيسة لمجلة هذا الاتحاد ولا تؤمني بقضية المرأة الخاصة؟!

قالت: مع الأسف بعض كتاب التاريخ يذكرون ذلك.. والحقيقة أني رفضت رئاسة تحرير هذه المجلة، ولم أتول هذا المنصب فالسيدة "هدى شعراوي" طلبت ذلك ولكنني رفضت لعدة أسباب أهمها أن المجلة

كانت هي التي تصدرها، ومعنى ذلك أنني أعمل لديها وأنا لا أعمل لدى أفراد إطلاقا، صحيح أن المجلة كانت تصدر عن الاتحاد النسائي، ولكن هذا الاتحاد يتبع السيدة هدى شعراوي هي ومجموعة معها.. وهي التي أسسته وتولته وتنفق عليه.. لقد اقتربت وأدركت بأنه اتحاد (هدى شعراوي) وليس اتحاد المرأة؟!

قلت لسهير القلماوي: مجموعتك القصصية (حكايات جدتي) يؤرخ بها للقصة القصيرة النسائية؛ فماذا بعد؟!

قالت: نشرت المجموعة القصصية عام ١٩٣٥ وذلك بعد تخرجي مباشرة وقبل رسالة الماجستير، حيث تسرد الجدة ذكرياتها على الحفيدة، وبذلك تنحصر الحكايات بين الثنائي الراوي والمستمع، وتركز الذاكرة التاريخية في حكايات جدتي على حياة النساء اللواتي بقين قابعات في منازلهن في أوقات الحرب. والأمر يقترب جداً مما فعلته بعد ذلك، وتخصصت فيه أدب (ألف ليلة وليلة)، ومثلما كانت الجدة تسلي الحفيدة فـ (ألف ليلة) في حقيقتها أكثر من (٢٠٠ كتاب) تروي قصصا كانت تروى لتسلية الملوك والحكام وعلى ذلك فليس فيها الخصائص الشعبية مثل أبي زيد الهلالي، فهي لم تكن ولم يعرف إنها كانت تروى على ربابة. بل أؤكد أن صورة "شهرزاد الجنسية مقحمة على النص العربي" ومع الأسف الذين كتبوا عنها، ومنهم توفيق الحكيم أكدوا هذا المفهوم المغلوط، فشهريار استبقى شهرزاد ليس لأنها جميلة ولا للجنس، وإنما لغرامه بالحكايات الغريبة لشهرزاد. ولم أستمر في الكتابة

لظروف العمل العلمي والأكاديمي ولأن كاتبات جيلي توقفن عند مشكلة اضطهاد الرجل للمرأة.

قلت: هل لك حكاية مع حكام مصر المحروسة؟

قالت سهير القلماوي: عينني الرئيس أنور السادات مرتين في البرلمان مرة وهو اسمه مجلس الأمة، ومرة واسمه مجلس الشعب، وليس بذلك علاقة بين السيدة جيهان وعلاقتى بها: "فجيهان شخصية نسائية مهمة ويمكن أن يؤرخ بها لنجاحات كثيرة للمرأة في مصر، ولقد قلت لها حينما تشاورت معي في أمر تعديل قوانين الأحوال الشخصية بأني لست متخصصة ولكني أعتقد أنه يجب ألا يكون الطلاق سهلاً ، فليس كل خلاف يمكن أن يجعل أسرة كاملة تتأرجح لكلمة وأننا علينا أن نعمق أنه أبغض الحلال عند الله، وقد كانت رؤيتها في تعديل القوانين لصالح الأسرة والطفل. وتم التعديل عن طريق رجال الدين ولم يكن به تجاوز وإنما نقل من مذهب لمذهب، وقد قيل وقتها من الفقهاء أن المعايير الشرعية تجعل الطلاق لا يقع إلا خلال ثلاث سنوات وليس فوريا، وخاصة إذا ما كان هناك حكم من أهله وحكم من أهلها. وحينما سكتت ذكرتها بأنها أستاذتها والمشرفة على رسالتها، بل أنني لمحت من بعيد إلى كتاب صدر لحسن عزت الضابط الثائر صديق السادات والمتزوج

من إحدى قريبات (جيهان السادات)[٤] .وقالت: الرسالة موجودة في الجامعة ويمكن الرجوع إليها، ثم أن مناقشتها كانت علانية وفي التليفزيون ولا يمكن التضحية بقواعد وأصول الجامعة تحت أي ظرف من الظروف، ثم إن هناك من هن أقل في الشخصية والاستعداد والبحث وحصلن على الدكتوراه في الجامعات؛ فالدكتوراه اعتراف بأن الطالب يعرف طريقة البحث العلمي وكيفية الإلمام بموضوعية، وجيهان تدرسُ الآن في جامعات أمريكا، فلم نجاملها بل هي التي رفعت رأسنا.. وقد ظلت علاقتي بها حميمة طوال الوقت حتى في عز غضب الرئيس السادات علي، وكانت تزورني في المنزل وأهدتني كتابها "سيدة من مصر"، واعترف بأنها قدمت للمرأة المصرية الكثير، فقد عدلت قانون الأحوال الشخصية واستطاعت أن تحصل على ٣٠ مقعدا للمرأة في البرلمان المصري!! ولكن فور وقوع زوجها السادات الله يرحمه انقلبوا عليها وأهانوها وشنعوا عليها حتى اتهموها بالزواج مرة أخرى!!

---

[٤] الكتاب هو "العمالقة والأقزام السبعة" وقال فيه إنها حصلت على أسرع ماجستير عام ١٩٧٩ ثم تراخت المساعدات بعد وفاة السادات فلم تحصل على الدكتوراه إلا عام ١٩٨٦ أي بعد ٨ سنوات وقال إن كل من ساعدها حصل على مكافأة سخية!!

روز اليوسف"لولو": المرأة الجميلة والمجلة الخطيرة ؟!

نشرت بروز اليوسف كما نشر كل نجوم الصحافة في مصر، وكان مجرد النشر (شرفا)، فأنا أنشر بالقطعة ولكن بلا مقابل.أي مقابل أريد؟! وأنا أعرف بأن إحسان عبد القدوس كان يتقاضى ٦ جنيهات وهو رئيس التحرير. وأحمد بهاء الدين أعطته صاحبة المجلة أعلى أجر وهو ٢٠ جنيها أما هيكل فكتب بـ ١٥جنيه!؟ ولكنني سعيد أني كل أسبوع أذهب لمجلة (روزاليوسف) أمشي في شارع القصر العيني وكأني على موعد مع الحبيب إنها روز الجامعة التي تخرج فيها ٧٥% من أصحاب مدارس صاحبة الجلالة من التابعي، ومصطفى أمين، لفتحي غانم، وصلاح حافظ. وتسير الأمور هكذا أسلم ما كتبت للأستاذ (نبيل عمر) فيعد بالعرض على القائد، ويقصد "عادل حمودة" وهكذا ينشروا ربع ما كتبت، ويرفضوا ثلاثة أرباعه فلا يئست ولا ملوا (من مايو ١٩٩١حتى مارس١٩٩٤) وقد نشروا لي قصة "أرض تحكمها حتحور" على ثلاث صفحات برسومات مبهرة وخطوط مميزة لـ (إبراهيم عبد الملاك) فهم عند النشر يعتنون بالكل لا فرق بيني وبين رئيس التحرير.. وحدث للأستاذة (آمال فكار) ما يحدث للنساء من أخبار سعيدة "الحمل والولادة" وكانت تكتب زاوية أو بابا عن "الجريمة" فتوليت عنها الباب لمدة سبعة أسابيع بتوصية من نبيل عمر.

فجأة، ودون إنذار تابعت مظاهرة النساء الزغلولية في ١٦ مارس ١٩١٩ مظاهرة أخرى أكثر عجبا وإتقانا.. إنها مظاهرة فنية قادتها

(روزاليوسف)!! كان من الواضع أنها مظاهرة وفدية قلباً وقالباً!! النداءات فيها نفس النداءات والشعارات هي الشعارات التي في مظاهرات ثورة ١٩ "سعد. سعد لا نريد إلا سعد"، "معانا في المنفى معانا في الوطن" ولكن ظهر نداء خاص بطبيعة المظاهرة يقول "كل زلة تغتفر إلا من خان بلاده فقد كفر؟!"..وإذا كان البعض يرى أن مظاهرة النساء في ١٦ مارس ١٩١٩ خلعت فيها النساء النقاب وحرقته وهو قول محل شك وتفنيد؟! فإنه كان هناك اتفاق على أن مظاهرة (روز اليوسف)كانت بالروج والكحل والوجوه الواضحة والعيون الظاهرة وبعض الآلات الموسيقية، إنها مظاهرة سافرة!! كانت المظاهرة ببساطة شديدة تثبت أن الفن لا يتخلى عن قضايا البلاد، وأن الثورة الزغلولية ليست ثورة حزب الوفد بل ثورة مصر– وأن الفن ولو وضع تحت الأقدام فإنه يضع الوطن فوق الرؤوس..

فعلت ذلك (روز اليوسف) بعفوية شديدة وبلا ترتيب وباندفاع تلقائي لم تكن وقتها عضوا في حزب ولا تفهم في السياسة وليس لها أحلام متعلقة بقضية المرأة، وإنما ممثلة مسرحية تحرز بعض النجاح وبعض الإخفاق وتَغير من (فاطمة رشدي) التي سموها سارة برنارد الشرق، وتختلف مع يوسف وهبي إلى حد طردها من فرقته بعبارة من عباراته إياها (معي يتذكرك التاريخ وبغيرى سينساك الناس، حتى (حندقة) لبيستك حين تراك في الشارع ستبحث عن اسم صاحبة هذا الوجه في ذاكرتها؟!) وحتى الآن لا يزال المؤرخون مختلفين في أسباب التنظيم المتقن لهذه المظاهرة!! في حين مظاهرة هدى شعراوي الأولى حدثت

فيها بعض الأخطاء؛ فقد اتجهت سيدات المقدمة إلى مكان غير المتفق عليه. واختصر فيها البعض مسافة سير المظاهرة بالاتجاه لبيت الأمة لمقابلة صفية زغلول!!.. والغريب أنه حتى هذا التاريخ لم يكن قد حدث لقاء واحد بين روز اليوسف وسعد زغلول!

ويذكر ذلك عبد الرحمن فهمى في مذكراته: أما الفنانون في المسارح فقد شاركوا أيضاً بجهد محسوس، إذ ذكرت (روز اليوسف) أن المسارح ظلت بممثليها تعمل رغم قلة المتفرجين إذ أن الصالات لم يكن بها سوى متفرج واحد أو اثنين، وقد يفتح الباب فجأة ويندفع إلى الداخل شبان من الثوار يسرعون إلى الاختفاء من مطاردة الإنجليز في حجرات الممثلات وخلف الستائر بالمسرح ويحتفظ الممثلون بهدوء أعصابهم لمقابلة الجند وإقناعهم أن أحداً لم يدخل.

فقد قرر الفنانون يوماً أن يقوموا بمظاهرات أسوة بسائر الطوائف في مصر وكانت كل المظاهرات ممنوعة ولا تقابل إلا بإطلاق النار وكانت كل المظاهرات تخرج وقد استعدت للعودة بعدد لا بأس به من القتلى والجرحى، وفي الساعة المحددة خرجت كل فرقة من المسرح الذي تعمل فيه – روزاليوسف– وقد حملت علماً كبيراً والتقت الفرقة كلها في ميدان (الأوبرا) أمام فندق (الكونتننتال) وكان في السائرين بعض الممثلين منهم جورج أبيض– عبد الرحمن رشدي– عزيز عيد– نجيب الريحاني– زكي طليمات– محمد عبد القدوس– محمد تيمور، وكل من كان يعمل في المسارح ممثلاً أو عاملاً وكانوا بملابس التمثيل المختلفة، وتقدمت

المظاهرات عربة حنطور تركبها (روز اليوسف) و(ماري إبراهيم)، ومعهما محرر بالأهرام كان عبد الحليم الغمراوي. وكان مديراً أيضاً لمسرح بروتيانا، سارت المظاهرات تقطع ميدان الأوبرا وحولها جنازات الشهداء وصيحات الجماهير، وتحت تمثال إبراهيم باشا مباشرة كان جنديان إنجليزيان صريعين، ثم تصدى للمظاهرة جنديان آخران ما إن رفع إحداهما بندقيته حتى عاجلته رصاصة أحد الثوار وكان مختبئاً في شارع جانبي متفرع من شارع عدلي، وأسرعت المظاهرة عائدة إلى مسرح بريتانيا.

ففي سنة ١٨٩٦، ولدت في مدينة طرابلس في لبنان فاطمة محمد محيي الدين اليوسف، أو فاطمة اليوسف، أو (روزاليوسف).. لقد ماتت أمها (جميلة) عقب ولادتها مباشرة، فربتها أسرة مسيحية في غياب الأب الذي كان تاجراً دائم السفر، واختارت الأسرة المسيحية لها اسم (روز) للتدليل، فلم تعرف فاطمة اليوسف في طفولتها التعصب، فهي مسلمة تربت في بيت مسيحي.. هي فاطمة وروز معاً.. تقرأ القرآن أمام صورة العذراء، وتصوم رمضان وتحتفل بالكريسماس.. لقد اختفى أبوها.. سافر ولم يعد.. انقطعت أخباره ونقوده.. فبدأت الأسرة البديلة تشعر أنها عاجزة عن إطعام الصبية.. وفي يوم زارها صديق للأب ودعاها للهجرة معه إلى البرازيل.. ووعدته أن تلحق به.. وركبت من ميناء صيدا سفينة لم تحملها إلى البرازيل، وإنما إلى الإسكندرية، حيث انضمت إلى أسرة إسكندر فرح، وانضمت إلى فرقته المسرحية.. وبدأت مشوارها الفني حتى أصبحت سيدة المسرح الأولى في مصر.. وعندما اعتزلت لم تفكر

في أن تفتح مطعماً أو معهد تجميل أو أتيليه للأزياء، وإنما قررت أن تفتح مجلة؟!

يقول د. إبراهيم عبده وهو يؤرخ لـ (روزاليوسف) السيدة، والمجلة: إن الفصل بينهما كالفصل بين الروح والجسد!! (لأن فاطمة اليوسف لم تكن امرأة ثرية، عرضت عليها فكرة إنشاء مجلة فأعجبتها وأمدتها بالمال، بل إن فكرة إنشاء المجلة من وحيها، وكذلك كان اختيار المجلة ومحرريها).

كانت روز اليوسف في ذلك الوقت منفصلة عن زوجها الأول المهندس محمد عبد القدوس، بعد أن أنجبت منه في يناير ١٩١٩ الكاتب الصحفي إحسان عبد القدوس. ولكنها خرجت في مظاهرتها في أواخر سنة ١٩١٩ بين شهري أغسطس وأكتوبر، وكانت في نفس الوقت قد تركت فرقة (يوسف وهبي) وعملت في فرقة الريحاني، ولكنها لم تنجح حيث كان أداؤها تراجيدياً والفرقة لها طابع كوميدى مميز، ووجدت نفسها تغالي في الحشمة فتلبس على وجهها يشمك وتدثر جسدها بعباءة سوداء فاحمة وتتجه إلى بيت الأمة لتقابل صفية زغلول والنساء.. هل فعلت ذلك بحثاً عن دور يناديها أو لاكتشاف هذا العالم الخفي عنها في دنيا النساء!! وبالرغم من أنها تعرفت على كثيرات من المعجبات بها ورحبن بها. إلا أن صفية زغلول عاملتها بتحفظ وكأنها في كل نظرة لها تسألها لماذا جاءت؟! وتقابلت هناك مع: حرم محمود رياض باشا- حرم الدكتور إبراهيم المنياوي - حرم محمد بك علي المحامي- حرم حسين بك نبيه- حرم السيد حسن صابر، وكلهن

أزواجهن أعضاء في الوفد. وشعرت بالغربة أنها لا تملك إلا اسم أبيها الذي تركها ولم يعد. وفهمت نظرات صفية زغلول القلقة لها؟! فالمسألة زيت في دقيق حزب الوفد وأعضاء الوفد وهوانم الوفد زوجات الأعضاء؟! فأين مكانها؟ لكنها استراحت للطقس الجديد التسامح الجميل بين الهلال والصليب إنه جو يسمو حتى على ما يحدث في الفن، وأعجبها عبارة (الدين لله والوطن للجميع) فقد عانت من أثر الخلاف الديني حينما ضمها الفنان (عزيز عيد) لفرقته، وعند التحاقها في البداية بجورج أبيض. واستمعت لهذا الحوار بدقة وتركيز.

هدى شعراوي: لو كان للحزب جريدة لاستطاعت أن تشعل الدنيا ضد الإنجليز ونفي الزعيم سعد زغلول.

عنايات سلطان باشا: لماذا لا نبدأ الآن؟.. إن التمويل متوفر وأنا مستعدة لتكاليف الأعداد الثلاثة الأولى.

صفية زغلول: لقد رفض سعد زغلول أن تكون أية جريدة لسان حال الوفد. لأنه يرى أن الوفد هو الأمة كلها. فهو يرى أن الصحف يجب أن يمتلكها أصحابها لا يمتلكها الحزب. ويكون بعد ذلك للجريدة حرية مناصرة الحزب حتى تكون حرة في التعبير عن رأيها.

حرم محمود رياض باشا وكأنها تغير الموضوع بعد أن حسمته صفية زغلول: فاطمة هانم إن محمود باشا معجب بمظاهرة الفن لمناصرة سعد زغلول ولكنه يراها (فانتازيا) لاهية – فما معنى تأييد الثورة في الصباح ثم تذهبون لتمثلوا مسرحيات (يا ستي ما تمشيش كده عريانة) و(خللي بالك

من أميلي) أين المسرحيات الوطنية التي تؤيد الثورة وتطالب بالاستقلال؟ واستأذنت منبهرة (فاطمة يوسف) لقد قلن لها فاطمة هانم وقد عقدت العزم على بعض الأشياء: مناصرة الوفد. عدم الاشتراك إلا في مسرحيات وطنية مع التفكير في جريدة مستقلة يكون لها توجة سعد زغلول..

وبسرعة قابلت (محمد التابعي) لتفهم منه معنى عبارة: فانتازيا لاهية!! لقد كانت روز اليوسف كما يصفها مصطفى أمين (جريئة لا تخاف. إذا أقدمت لا تتراجع. وإذا هاجمت لا تعتذر. وإذا وقفت على الأرض رفضت أن تسلم سلاحها، ومع ذلك كانت امرأة ساحرة جميلة كلها أنوثة وكلها جاذبية، وكلها حنان) وتقابلت مع أمير الصحافة محمد التابعي، وتحدثا كان التابعي وقتها سعيداً جداً بما نشر في جريدة الأخبار– وهي ليست الأخبار الحالية وإنما جريدة أخرى صاحبها أمين الرافعى أحد المشاركين في ثورة ١٩١٩– كان يقرأ: (إن سعد باشا قدم مذكرة إلى المستشار الملكي المسيو بيولا كازيللي تتضمن عدة أسئلة عما إذا كانت الصحف لا تزال خاضعة لضرورة استصدار إذن قبل ظهورها وما هي الطرق الإدارية التي تتخذ لإلغاء صحيفة أو إيقافها أو إنذارها؟ والغريب أن الجريدة قالت إن إجابة المستشار الملكي عن الأعمال الداخلية للوزارة هي مما لا يهم الجمهور، لذلك اكتفينا بذكر الأسئلة، وإن كانت قد أضافت بأن المستشار الملكي قال إنه لا خلاف في أن سن قانون جديد للمطبوعات أمر ضروري) وتأكدت نية روز في إصدار جريدة ولكن أي نوع من الجرائد؟!

فهناك روايتان: الأولى ذكرتها د. إيمان عامر (مدرس التاريخ الحديث بجامعة القاهرة)، وهي ترى أنها جريدة سياسية اتفقت عليها مع التابعي ولكنها عند حصولها على ترخيص حصلت على ترخيص مجلة سياسية، وعندما عرضت الفكرة على الأستاذ التابعي وطالبته بأن يشاركها المجلة رفض الفكرة في البداية، غير أن الفكرة في ذهن روز اليوسف استمرت، وكان إعجابها بسعد زغلول له تأثير في تحولها فهو كما وصفته تحول من شخصية ممتازة إلى فكرة، ومن فكرة إلى عقيدة وطنية

كانت مجلة الكشكول في تلك الفترة في عنفوان جبروتها، وكانت ضد سعد والوفد، وتقول روز: (كنت كلما قرأت الكشكول وهو ينال من سعد العظيم، أقضي ليلة مزعجة، إذ كنت أعتقد – كما أعتقد الآن – أن من يجترئ على سعد بالباطل إنما ينال من حقوق الوطن).. واستطاعت روز أن تحصل على رخصة سياسية للمجلة وأصبحت مجلة سياسية دخلت ميدان السياسة وحيدة لا يسندها حزب ولا يمولها حاكم ولا يدبج لها المقالات كاتب سياسي قديم. وتؤكد ذلك هدى التابعي حرم محمد التابعي في اعترافاتها مع الصحفي حنفي المحلاوي والتي نشرها في كتاب فهي تؤكد أن الحياة العاطفية عند التابعي ارتبطت بحياته الصحفية وأنه ارتبط عاطفياً وباعترافه بثلاثة شهيرات (فاطمة رشدي – أسمهان – أمينة البارودي) وأن فاطمة رشدي في مرحلتها الفنية الأخيرة – وقبل الاعتزال – ارتبطت بالتابعي من خلال عمله في النقد الفني والمسرح بالذات، وكان يكتبه تحت اسم (حندس) وحينما تفاقمت

مشاكله مع فاطمة رشدي حتى أنها اعتدت عليه بالضرب (بالشبشب)! وجه اهتمامه للمثلة الفاتنة روزاليوسف وأطلق عليها (لولو)، حتى عرف بعد ذلك العاملين في مجلتها روزاليوسف (بحزب لولو) واستمر معها عاطفياً وصحفياً من عام ١٩٢٠ حتى ١٩٣٣ واستغلت "روزاليوسف" الحالة العاطفية بينهما في نقل طموحاته من الكتابة الفنية إلى الكتابة السياسية، وأنه عند بداية الكتابة السياسية معها كان يكتب بغشم وبقلم انتحاري، ومن أجل طموحاتها تعدد دخوله السجن بسبب كتاباته، وأنها أفهمته بأنها تصدر المجلة من أجله!!

أما الرواية الثانية: فتقدر أنه في أواخر ١٩٢٣ وقد جمعت موائد (كساب الحلواني)، ومكانه الآن سينما ديانا، كلاً من روزاليوسف وإبراهيم خليل وزكي طليمات وآخرين، نادى البائع على مجلة (الحاوي) وهي تحمل نقداً فنيًا لاذعاً للمسرح المصري؛ فاقترحت روز عمل مجلة فنية تقاوم هذا الغش الإنساني والشخصي وتسمو بالأعمال المسرحية وتدعو لمسرح المقاومة للوقوف مع سعد زغلول. ووافقوا على أهمية هذه المجلة.. ويؤكد مصطفى أمين[٥] هذا الرأي وهو الذي اشتغل في روزاليوسف في بدايات عمله الصحفي؛ فهو يقول (قالت لي مرة روزاليوسف وهي تضحك، أنها أَدارت مجلتها وهي لا تريد إلا أن تهاجم يوسف وهبي صاحب الفرقة التي كانت هي ممثلتها الأولى!! فهي لم تنس ما قاله لها من أنه هو التاريخ

---

(٥) السبب فى ذلك أن يوسف وهبي رفض أن يعطيها دور فتاة عمرها ١٨ سنة فى رواية الذبائح وأعطى الدور لممثلة ناشئة فى ذلك الوقت اسمها (الآنسة أمينة رزق).

وبغيره ينساها الناس؛ فأرادت أن يكون اسمها على مجلتها للأبد، وأن تكون مجلتها فنية!! فإنها لم تتحول للسياسة إلا في وقت عزل سعد زغلول من الوزارة وصدرت المجلة وكانت المعارضة الأساسية من الجميع بما فيهم التابعي، اشتراط روزاليوسف من البداية أن تحمل المجلة اسمها. وتقول روزاليوسف عن ذلك في مذكراتها:

(عجبوا إذا أسميت صحيفتي باسمي، وقالوا نزاعة إلى الشهرة!! أية شهرة!! الطبل العزاف إنني منه في صمم، ولم العجب أليست صحيفتي شعبة من نفسي؟!)

وقد احتج على الاسم (التابعي) و(عباس العقاد) واحتج الوفد بعد أن أصبحت المجلة سياسية ثم قبل الجميع بهذا الاسم. ولم يكن الرفض للاسم فقط بل الرفض لأن صاحبة المجلة سيدة وفنانة، وحتى أن العقاد رفض في البداية أن يكتب في مجلة (تملكها سيدة)، حتى بعد أن نجحت المجلة وانتشرت وأصبح لها جمهورها،كان هناك بعض من هذا الجمهور يخجل من أن يصرح بأنه يطالعها، فقد ذكر أحد المتصلين بروزاليوسف أنه صادف أحد النواب يقرأ مجلة يبدو من غلافها أنها مجلة (النواب) وبدا أنه يضع شيئاً آخر داخل المجلة فإذا به مجلة (روزاليوسف) وعلق البعض على ذلك بأن النائب المحترم لا يريد أن يعرف الناس أنه يقرأ مجلة روزاليوسف، ربما لأنها مجلة تحمل اسم سيدة!! غير أن المتناقشين طرحوا تساؤلاً هل لو كانت المجلة تحمل اسم هدى شعراوي أو نبوية موسي فهل يجد النائب حرجاً في قراءتها علناً؟! إذن السبب أن المجلة تحمل اسم فنانة.

وشعر الوفد بأن روزاليوسف مجلته، واشتهر اسم روزاليوسف ولمع سياسياً ويحكي عن ذلك إحسان عبد القدوس: (وحصل مرة أن مندوب مجلة روزاليوسف في الإسكندرية مرض؛ فكلمتني والدتي وكنت لسه طالب ثانوي وقالت لي روح لوكاندة ولسون هتلاقي الوزراء قاعدين هناك هات لي منهم أخبار؟ كان عندي لسة ١٧ سنة، رحت اللوكاندة ولقيت فعلاً هيكل باشا قاعد والوزراء كلهم قاعدين، فقلت لهم ماما بتسلم عليكم وبتقول لكم هي عايزة أخبار، وطبعاً إدوني فعلاً أخبار، وقعد الوزراء أنفسهم يساعدوني في كيفية تدوينها، ووالدتي انبسطت قوي)..

واشترك كل أعضاء الوفد في مجلة (روزاليوسف) إلا سعد باشا زغلول – إنه يعرف أخبارها من أعضاء الوفد ويسأل عنها في بيته ولا يجدها ولا يصدق أن روزاليوسف وفدية أكثر من الوفد نفسه. وتتعجب روز أن زعيم الوفد لا يحدثها عن مجلتها بل إنه لا يدفع الاشتراك، مع أنها بنفسها تتأكد من وصول المجلة لبيته؟! واستمر السر غامضاً حتى عمل مصطفى أمين في مجلة (روزاليوسف ١٩٣٠) واعترف لها بأنه هو السبب فقد كانت المجلات والجرائد تصل للمنزل فتتصفحها (صفية زغلول) وأحياناً تضع خطوطا تحت بعض الأخبار ليهتم بها زوجها سعد، وكان علي أمين ومصطفى أمين ينتظران أن تفرغ من ذلك، فإذا تركت الصحف على مكتب الزعيم دخلا لحجرته وأخذا (روزاليوسف) واختفيا بها، فقد كان إعجابهما بالتابعي لا ينقطع!!.. وتنهدت روزاليوسف وكأن حجراً ثقيلاً تزحزح من قلبها وأمسكت بتلابيب مصطفى أمين فقد حرمها

من أن تعيش أحلى اللحظات في حياتها بوصول كلمتها للزعيم وبحديثه معها، وبسرعة أظهرت كرماً نادراً ووزعت مكافأة على العاملين بالمجلة.

وتأثر مصطفى أمين فاصطحبها لضريح سعد ولبيب الأمة، وأخذتها صفية زغلول بالأحضان فهي التي قرأت كل ما كتبته وعرفت كل ما قدمته مجلتها (للوفد) ونظرت في عينيها.. ولم تجد (روزاليوسف) نظرات الشك والريبة التي وجدتها في زيارتها الأولى؛ تغيرت العيون فشعرت بتغير القلوب، ولم تجد أحدا ينتقدها، وإنما وجدت "منيرة ثابت" تقبلها وتفاجئها بأنها حفرت في تاريخ المرأة طريقاً باسمها. وقالت لها أنها تبنت ما نادت به وحدثت عنه وزير المعارف؛ فقد رأت روزاليوسف أنه لا بد من حصول المرأة على تعويض مالي مناسب بعد الطلاق نظراً للأضرار الاجتماعية التي تنجم عن تلك الحالة، وخاصة إذا كانت الزوجة عاملة لأن قانون العمل وبالذات في مهنة التدريس– في تلك الفترة– كانت تفرض استقالة المدرسة عند الزواج فإذا طلقت فإنها بذلك تخسر عملها وزوجها فلا بد من حصولها على تعويض مالي يناسب تلك الخسائر ويقدرها القاضي؟!

ولم تنسحب روزاليوسف هذه المرة، وإنما قالت لمنيرة ثابت: "والفنانة التي تعمل بجد واجتهاد ماذا يحدث لها إذا تزوجت أيضاً، بل إذا ضاعت منها صحتها. قوللى أين أذهب يا منيرة هانم!! الفنانة امرأة عاملة كالفلاحة والمدرسة!"

وحينما أرادت الانصراف إذا بأم المصريين تنتفض قائلة: ما بدري خليكي قاعدة شوية ما بدري يا ست روز!!.. ويقول مصطفى أمين: وعند

انصرافها كان في داخلها ألف رجل!! وانعكس ذلك في كتاباتها: فعندما عقد المؤتمر النسائي العربي عام ١٩٤٤ لتوحيد جهود المرأة الشرقية وتقرير حقوقها المدنية والسياسية، دعت هدى شعراوي روزاليوسف لحضور حفل شاي في دارها للمشتركات في المؤتمر الشرقي..

وكتبت روز تحت عنوان (ثلاث ساعات بين الهوانم والمدموازيلات): (ذهبت إلى الحفلة بعد تردد دام طويلا، إذ كانت هذه هي المرة الأولى التي أحضر فيها اجتماعاً نسائياً صرفاً، وكان علي أن أتأبط كمية من (نون النسوة) لأتمكن من وصف الحفلة، على فرط ما بيني وبين نون النسوة من سوء تفاهم شديد، والحق على صاحبة الجلالة الصحافة التي جعلتني غريبة على اجتماعات بنات جنسي؛ فلست أنكر أنني كنت في هذه الحفلة أشبه بالفضولي يندس بين مدعوين لا يعرفونه ولا يعرفهم.. وكتبت في وصف آخر للمؤتمر على الخطبة التي ألقتها إحدى عضوات المؤتمر عن مأساة فلسطين فلم تتحمل المدعوات سماع هذه الخطبة الفياضة فأصبحن بين أمرين إما أن يطلقن العنان لدموعهن، وإما أن يتجلدن لإنقاذ ما يمكن إنقاذه (ولكن ترددهن لم يطل فانبعثت الدموع من أعينهن وأمسكن بالمناديل يلتقطن الدموع التقاطاً قبل أن يختلط الأحمر بالأبيض).

هكذا وصفت روز وقائع المؤتمر وكأنها تراه بعيني رجل، ويبدو أن مهنة التمثيل كان لها تأثيرها على خيالاتها وكتاباتها فكان يحلو لها أن يرسم لها رسم كاريكاتيري في المجلة وهي بملابس الرجال. ففي أحد أعداد المجلة نشرت لنفسها كاريكاتيراً وهي ترتدي الجبة والقفطان

والعمامة، وكتبت تحتها (الأستاذة روزاليوسف) الأمر الذي أثار عليها بعض الأزهريين فأرسلوا إلى المجلة يحتجون على هذا الرسم باعتبار أن العمامة (هي تاج الأزهر والإسلام) وأنهم لم يروا حتى القرن العشرين سيدة ترتدي العمامة، فأوضحت روز أنها إنما أرادت المبالغة في توضيح فكرة الأستاذية بعد أن طلبت من أصدقائها استبدال كلمة (الست) بلقب (الأستاذة)، وقد حدث ذلك عندما علمت بتصريح سعد زغلول إلى عدد من المتصلين به بأنه معجب بالمجلة (ذات الدم الخفيف) فتملك روز زهو شديد بنفسها ونشرت هذا الرسم واستخدمت هذا اللقب.

وفي مرة أخرى نشرت رسماً لها وهي ترتدي بدلة وطربوشاً وتمسك بالعصا، وجاء هذا الرسم في مقال للاحتجاج على أن كونها سيدة يمنعها بحكم العرف والتقاليد والبروتوكول من الحصول على الباشوية، واعتبرت روز اليوسف أنها جاهدت وأدت الخدمات للبلاد بينما هناك من السيدات (وتقصد زوجة النحاس باشا) حصلن على ألقاب الشرف لمجرد زواجها من أحد العظماء فكتبت: (وليس الزواج فيما أظن في قائمة التضحية والجهاد، فحرم النحاس باشا التي نالت أرفع الأوسمة شأناً مع أنها لم تخرج من دارها إلا للنزهة وشم الهواء، أو للسفر إلى الخارج طلباً للراحة من عناء شم الهواء!! أما زواجها برفعة النحاس باشا، فعمل ليس وطنياً فيما أعلم ولا حساب له إلا عند الله!! فكيف تفضلني عند تقدير الجهود وكيف تسبقني إلى ما أنا أحق منها به؟!).

ولم تكن روز اليوسف بمعزل عن قضايا المرأة ومشكلاتها، فحول

الموضوع القديم الحديث: هل يصح للمرأة أن تشارك الرجل عمله وتقاسمه ميدان العمل؟! كتبت عن نابليون عندما سئل (أي حصون فرنسا أمنع؟ فأجاب: المرأة الصالحة)

وقسمت روزاليوسف الرجال لثلاثة أقسام: القسم الأول يدرك حقيقة الحياة التي أصبحت قاسية وظالمة فلم يعد يرى غضاضة في أن يتخذ من كتف المرأة سلماً يطل منه على الحياة وأن تمهد له سبل الارتزاق، وقسم ثان زاد اعتزازه برجولته عن المقدار المقرر في روشتة الحياة فعد المرأة ضعيفة عاجزة ونسب لها القصور والتقصير وجرى في الحياة لمساعدة هذا الجنس الضعيف العاجز الذي تضمه جدران البيت الأربعة، وقسم ثالث وهو الذي يقدر المرأة ويعرف لها جانبها الخطير في الحياة ويعمل من جانبه لمساعدة المرأة في هذا الواجب الكبير..

فإذا أبعدنا وأسقطنا القسم الأول حيث إن إنكاره خير من الاعتراف به والتغاضى عنه أفضل من إثباته بقي لدينا القسمان الثاني والثالث، ونظرة سطحية تكفي لأن نقول إن الكثرة الغالبة يضمها القسم الثاني أما الثالث فهو قليل نادر. ورفعت روزاليوسف دعوتها: (ابحثوا عن الرجل قبل كل شيء وصبوه في القالب المطلوب ثم تكلموا عن المرأة ما شئتم لأن واجبها إذا قامت به على أتم الوجوه لأعدت أمة أصلها ثابت وفرعها في السماء. ولكن لو عرف الرجال واجبهم وقدروا المرأة وعملها أقول لو!!).. وسارت المجلة تضرب في بحر السياسة بينما كانت صاحبتها في باريس، واحتجت السلطات على بعض المقالات التي رأت

فيها مساساً بأصحاب المناصب، الأمر الذي أدى إلى القبض على المدير المسئول وإيقاف المجلة عن الصدور لمدة تزيد على الشهر، مما دفع بعودة صاحبتها من باريس التي عادت فوجدت بحر السياسة هائجاً مزبد الموج فلم تتردد في أن تصدر العدد ١٢٠ يحمل اسمها بصفتها المديرة المسئولة عن سياسة المجلة. وازدادت ضراوة الحرب بين (روزاليوسف) و(الكشكول) وعندما قامت الأخيرة بمهاجمة زوجة مكرم عبيد لم تتردد روزاليوسف في الكيل للكشكول من نفس الوعاء يدفعها في ذلك عاملان على حد تعبيرها: عامل الحزبية، وعامل الغيرة على واحدة من بنات جنسها، وكان أن تقدم سليمان فوزي صاحب (الكشكول) بشكوى ضدها، وفي تحقيق النيابة دفعت ضريبة نزولها ميدان العمل الصحفي عندما سألها المحقق: بتشتمي ليه حرم سليمان أفندي؟ أجابت: هو كمان بيشتمنى وأنا كمان حرمه.. أجاب المحقق: أيوة لكن أنت حرمة عمومية؟ وعندما بدأ على روز التأثر من كلمة عمومية، سارع المحقق قبل أن تبدي اعتراضها واعتذر وأوضح لها أنه يقصد أنها صحفية وشخصية عامة.

ولم يكن دفاعها عن زوجة مكرم عبيد هو الذي أوضح ميلها للوفد فقد كتبت روزاليوسف بمناسبة حادث من أبرز حوادث التاريخ المصرى الحديث واعتبرته (روز) أول عمل تقوم به في الصحافة السياسية، وذلك من خلال محاكمة "أحمد ماهر والنقراشي" بتهمة تكوين عصابة قامت باغتيال السردار وغيره من الإنجليز، وكان الدفاع يقوم به عدد كبير من

المحامين الوفديين على رأسهم مصطفى النحاس، وكان الإنجليز يبغون دمغ الوفد كله بالتآمر والجريمة والإرهاب، بإدانة عضوين بارزين فيه، وحضرت روز جلسات المحاكمة، وكتبت عنها في مجلتها وعندما ظهرت براءة المتهمين اقتربت من قفص الاتهام لتصافحهما مهنئة.

وفي سنة ١٩٢٦ هبط توزيع المجلة إلى خمسمائة نسخة أسبوعياً منها ١٥٠ نسخة اشتراكات، وذهبت روزاليوسف للتابعي تسأله: "هل سعد زغلول غاضب علينا؟!" وسألها التابعي: "وما علاقة التوزيع بسعد زغلول؟!"، وإذا بها تذكره بشيء. وقد كان أمين الرافعي صديقاً حميماً لسعد زغلول، واشترك في ثورة ١٩١٩ وكان يصدر جريدة (الأخبار) وكانت الجريدة تعتبر لساناً من ألسنة سعد زغلول، ثم حدث أن اختلف أمين الرافعي مع سعد زغلول في الرأي السياسي، وكانت جريدة الأخبار قد وصلت في توزيعها أن أصبحت أوسع صحف مصر انتشاراً! كانت توزع في تلك الأيام حوالي الخمسين ألف نسخة!

ولم يصدر سعد زغلول قراراً بمقاطعة الجريدة. كل ما فعله أن قال في إحدى خطبه (أنا لا أقرأ جريدة الأخبار)؟! وفي اليوم الثانى هبط توزيع الأخبار من خمسين ألف نسخة إلى ثلاثة آلاف نسخة، وطمأنها التابعي فهو لم يسمع شيئاً يسوء في العلاقة بين المجلة وبين الوفد ثم أن الاشتراكات كلها من أعضاء الوفد وهي مستمرة وتزيد!!

لم تكتف السيدة روزاليوسف بنجاحها الصحفي، بل عاشت تتمنى عودتها إلى أضواء المسرح، وقاومت أصدقاءها ومحرريها الذين عارضوا

أن تظهر على المسرح تمثل أدوار الحب والغرام بعد أن أصبحت صاحبة أكبر مجلة سياسية في مصر، ولكنها بعنادها وإصرارها تحدت الجميع وظهرت ليلتين متواليتين على مسرح الأزبكية في دور مارجريت جوتيه العاشقة في مسرحية (غادة الكاميليا)، وذلك لصالح المنكوبين في حريق هائل في قرية محلة زياد، ونجحت الصحفية في دور الممثلة، كما نجحت الممثلة في دور الصحفية، ثم فكرت في أن تمثل فيلماً في السبنما في أول دخول الأفلام الناطقة إلى مصر، وأجرت تجربة سينمائية لم تعجبها لأنها بدت عجوزاً، وكانت تريد وهي في الخمسين أن تمثل دور فتاة صغيرة! ولكن روزاليوسف مع كل هذا لم تصل إلى صدارة المجلات السياسية.

وفجأة تولى محمد محمود باشا الحكم وبدأ عهده بمصادرة روزاليوسف، ودوى النبأ كالرعد في مصر، فقد كانت أول مجلة تصادر في عهد الدستور، وكتبت الصحف عن المصادرة وخطب النحاس باشا رئيس الوفد محتجاً على مصادرة روزاليوسف، وأطلق كتاب الحكومة على الوفد (حزب روزاليوسف) وخطب النحاس وقال: (نعم نحن حزب روزاليوسف) وكانت المصادرة نعمة وبركة على المجلة فتضاعف توزيعها وزاد انتشارها، وأصبحت لأول مرة المجلة الأولى في مصر، وصمدت روزاليوسف للتهديد والوعيد والتعطيل والمصادرة والتنكيل، وفي كل يوم تقوى روزاليوسف وتضعف الصحف والمجلات التي اختارت السلامة، ولا تخرج من معركة إلا لتدخل معركة، ولا تنجو من أزمة إلا وتقع في

أزمة أشد وأخطر. وكانت روزاليوسف امرأة ضعيفة في أيام النعمة، وامرأة قوية جبارة شرسة في أيام النقمة، كانت كالوردة البيضاء في أوقات الرخاء وكالخنجر المسموم في أوقات الشدة متعتها أن تحارب ولا تستسلم، أن تندفع ولا تتراجع، أن تنضرب ولا تجري، وكانت شجاعتها النادرة تثير الحماس في كل من حولها، فيقف القاعد، ويتحرك الساكن، وينطق الأخرس ويقدم المتردد، ويطمئن الخائف، ويتشجع الجبان.

وبدأ إحسان عبد القدوس يطل بقلمه السياسي مندفعا بخيال الأدباء وثورة السياسيين، وأصبحت مجلة روزاليوسف لا تهلل لكل ما يفعله الوفد بل تنتقد وتوجه. وتطرقت روزاليوسف لحرم النحاس باشا وإسرافها وسيطرتها، واجتمع الوفد وقرر التبرؤ من جريدة روزاليوسف وأصدر أمرا للجانه بمقاطعتها، وجاءت المظاهرات الحاشدة إلى دار الجريدة تهتف بسقوطها، فخرجت إليه روز اليوسف نفسها وحدها واندفعت تهتف بسقوط النحاس. وتلقت اللعنات والشتائم فتصدت لها وأبت أن تتراجع أو تخضع أو تركع أمام غضب الجماهير. ودخل إحسان ابنها السجن عن مقال ضد (اللورد كيلرن) سفير الإنجليز وقتها في مصر، وكان له سلطان ومهابة كان العنوان (هذا الرجل يجب أن يذهب إنه بطل حادث ٤ فبراير).

وهذا الحادث هو الذي أتى بالوفد على رأس الحكومة في أيام الملك فاروق. وكان رئيس الوزراء وقتها صديقاً (لروزاليوسف) فقال لها: أنا أسعى للمفاوضات وإحسان يريد أن يوقف هذه المفاوضات، خليه

يرجع عن رأيه.. وقالت روز: يسجن ابني ولا يرجع في رأيه!! ولم يسجن وقتها إحسان. ولكنه سجن لأول مرة عام ١٩٥٤ في عصر الثورة؟!..

وفي ١٥ مارس ١٩٥٤ كتب (إحسان عبد القدوس) ضد الثورة مقال (الجمعية السرية التي تحكم مصر) وفيها ربط بين الحرس الحديدي والضباط الأحرار. ودفع إحسان ثمن مقاله ودخل السجن، واتهم أيضاً هو وأمه (فاطمة اليوسف) وزوجها مع ٢١ صحفياً آخر بأنهم يتقاضون المصروفات السرية من السرايا.

وقال صلاح سالم في احتفال بتوزيع الأراضي على الفلاحين (إن الصحافة تنادي بالحرية والديمقراطية ليأخذ الصحفيون باسم الحرية المصاريف السرية)، والمصروفات السرية (هو أسوأ اتهام يمكن أن يوجه إلى صحفي) وكانت تلك تهمة أخطر من التهمة التي وجهت رسمياً لإحسان عبد القدوس وهي (العمل على قلب نظام الحكم) أو كما قال الأستاذ إحسان بعد أن خرج من ثلاثة أشهر حبساً في السجن الحربي، بينها شهر انفرادي.

ويذكر بعد أن خرج إحسان من السجن استدعاه عبد الناصر لتناول الطعام معه؟! وظل طوال شهر كامل يدعو عبد الناصر ليشاهد معه فيلماً سينمائياً يوميا، ليعيده لصداقته، ويقول له أنه كان يكيفه مع الثورة فيعرف ما يقال وما لا يقال؟! ولم يتكيف إحسان، ولم يعد احسان يقول لجمال يا "جو" كالسابق وإنما خاف وانكمش فإذا قابل جمال قال: سيادتك وعظمتك، وبعدها تمام يا ريس!

وقالت روز لابنها إحسان عبد القدوس: إذا كان عبد الناصر يريد (يربيك) فهذا معناه أنه يعتقد بوفاة أمك؛ فكيف أتعامل مع من يعتبرونني في القبر، واعتزلت روزاليوسف في منزل العائلة الكبير في كفر الشيخ.

قطار الصحافة لا يعرف الرحمة !

وقال عبد الناصر مرتين الأولى لثروت عكاشة والثانية للسادات:
ولا جريدة داخلة دماغي.. عاوز صحافة ثورة..

في كتاب موسى صبري (٥٠ عاماً في قطار الصحافة): ولم يكن أي صحفي مؤمنا على رزقه، كان وقف الصحفي يتم بتليفون من عبد الناصر أو سكرتيره. لم تكن هناك حاجة لأي قرار مكتوب، وقد أوقفت عن العمل ثلاث مرات في عهد عبد الناصر، وكان معروفا صحفيا أن جريدة الجمهورية لها موسم سنوي للفصل، وفي مرة تجاوز الفصل ١٢٠ محررا ولم تكن المقاضاة واردة،كانت تعني المقاضاة وقتها تحدي حكم عبد الناصر وإذا فصل الصحفي أو أوقف عن العمل، فكل الجهات لا تتعامل معه، لا الإذاعة، ولا التليفزيون، ولا الناشرون، فالفصل هو قرار بالإعدام.

لم يرتح عبد الناصر للصحافة في الأربعينات، فقد كتب بمجلة الكشكول كيف شاهد الناس النحاس باشا يطرطر في سكة الهرم؟!، وتساءلت الكشكول عما إذا كان هذا العمل الفاضح يتفق مع رئيس الوزراء؟! ورأى عبد الناصر أن الإنجليز شوهوا ثقافة الناس؛ ففي سنوات قليلة فتحت مصر أبوابها للأوروبيين ولكل الغرباء، ونسج الأجانب مجتمعهم بمختلف طبقاتهم، وظهر تناول الخمور ومتعة الحفلات الصاخبة، وتعلم المصريون كل شيء من البنطلون إلى الرقص وحفلات الباللو، بل

استبدلوا بلافتات الخط العربي والآيات القرآنية، اللوحات الزيتية. وأخيرا شرعوا في مجاراة الأجانب حينما فتح هؤلاء الخمارات والفنادق والمطاعم وبيوت الدعارة وأصبح هناك تذوق جنسي للحياة خلقه عساكر الإنجليز الذين كانوا يتسكعون في شوارع وسط البلد، وفي مدن القناة ينشرون الرذيلة والعهر. وصارت الأغاني خليعة عارية.. أغان تحولت في نهاية الأمر إلى دعوى صريحة للشهوة والخطيئة فغنت (منيرة المهدية):

بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة.. وأقعد معاك على هواك..

ولافيش هناك غيرنا.. وبلاش كتر الخشا..

ويغني "صالح عبد الحي":

عاشق وليه بتلوموني بين النهود خلونى

وعاد الجيش من حرب فلسطين ٤٨ وقد أيقن أن الإصلاح يجب أن يكون من الداخل، فالاعتراف بالمسئولية عن الهزيمة في حرب ١٩٤٨ يحتاج إلى شجاعة غير متوافرة آنذاك لدى الأطراف الثلاثة المسئولة معاً عن الهزيمة بدرجات متفاوتة؛ فراحوا يتبادلون الاتهامات فيما بينهم بشأنها حيث وجه الملك "فاروق" اتهاماً بسوء القيادة والتوجيه لقائد عام الجيش الفريق "حيدر باشا" ورئيس الأركان اللواء "عثمان المهدي" اللذين اتهما من جانبهما الضباط المقاتلين أنفسهم بالإهمال والتراخي؛ فرد هؤلاء باتهام الملك "فاروق" شخصياً بتوريد أسلحة متخلفة عجزت عن مواجهة الأسلحة الأحدث التي كانت في

حوزة عصابات البلطجة الصهيونية وهو ما أصبح معروفاً بعد ذلك بصفقة الأسلحة الفاسدة. وعندما تسابقت القوى الأجنبية على مقدرات مصر مع الحرب العالمية الثانية، لم تكن دار المقطم بعيدة عن مخططات بريطانيا، ولا كانت دار الأهرام بعيدة عن أحلام فرنسا، عدا بعض الصحف منها (المصري، ومصر الفتاة، وصحف الإخوان) كانت تحمل توجهات خاصة، ففيها تيار الوفد، وفيها مسحة راديكالية، وفيها إسلام سياسي، ورأى جمال معها عدم تمثيلها هي أيضا لمصر الثورة، وحنق عبد الناصر على مدرسة (أخبار اليوم) فهي مدرسة تسير على نهج الصحافة الأمريكية في الإثارة وفضح الحياة الخاصة، والفضائح، ولم يستوعب ناصر أن يكون "مصطفى أمين" ضمن حاشية محمد حسنين باشا بالقصر أو أن يقبل "التابعي" الذهاب مع الأسرة الملكية في رحلة بحرية لأوربا، لعدة أشهر،دفعت تكاليفها الملكة نازلي؟!

ولم تعجب الصحافة الحزبية الضباط الأحرار، رأوا أنها تعبر عن الإقطاع والبشوات، ومصالح خاصة وكان الحل استصدار مرسوم بقانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ لمنح الأحزاب مهلة شهرا لتعيد تكوين نفسها، ولما وجدوا أن المرسوم لم يجدِ، أصدروا إعلانا دستوريا بحل جميع الأحزاب ووقف صحفها الحزبية، وقبل اكتمال العام الأول لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢«كانت هناك أشياء ملفتة للانتباه في العلاقة بين الصحافة والثورة فقد صدر قرار وزاري في ٢٦ مايو ١٩٥٣ بتوقف (٤٢) صحيفة بحجة عدم انتظامها في الصدور في المدة (من١٠/١٩٥٣ إلى

٣/١٩٥٤) منها: الأساس، المقطم، البلاغ، الثقافة، الدستور، السياسة، نشرة وكالة الأنباء العربية، الجريدة المسائية، الرسالة، الحوادث، الأحوال، الخبر، المساء، الرياضة، الوادي، دليل الشرق، الشيخ، صوت الشعب، الناس، الرأي الحر، البورصة)».

بل وفكرت حركة الجيش أن يكون لها صحافتها، وعرض عبد الناصر على "هيكل" أن يتولى الأمر واعتذر هيكل، واعتبرها خطوة استباقية فالصحافة القائمة لم تعادي أو تعارض الثورة، بل أنها فرحة بها، ومؤيدة لها وكان وقتها هيكل رئيس تحرير لمجلة "آخر ساعة" فأصدرت إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة، مجلة (التحرير) في ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ وعهد بها ناصر لأحمد حمروش أحد الضباط الأحرار وكان له توجه شيوعي، فاتفق مع عبد الرحمن الشرقاوي، وحسن فؤاد، وصلاح حافظ، ويوسف إدريس. وبلغ توزيع العدد الأول ١٠٠ ألف نسخة، ورغم النجاح أبعد عبد الناصر حمروش عن رئاسة التحرير– بعد العدد الثاني– بدعوى أن المجلة تسير في اتجاه شيوعي، وعين بدلا منه ثروت عكاشة، وقال له عبد الناصر: حمروش عمل لنا نشرة شيوعية..عاوز صحافة ثورة![٦] كان الاختيار مناسبا فعكاشة حصل على دبلوم الصحافة في

---

(٦) منذ سنة ١٩٤٧ ظهرت فى مصر ظاهرة غريبة، وهي قيام عدد من أبناء الباشوات وكبار الملاك بالانضمام إلى المنظمات الشيوعية، وأحدهم كان والده رئيساً للوزراء.والآخر كان والده وزيراً وفدياً وآخر والده محافظاً لإحدى المحافظات الكبيرة، وتأصلت فى أنفسهم العقيدة الشيوعية تأصلا صادقاً.. كانت دراستهم للشيوعية دراسة أكاديمية عميقة وأصبحوا من أكبر دعاتها حتى أن ابن رئيس الوزراء كان يذهب الى المطبعة جهاراً فى النهار ويطبع المنشورات الشيوعية ويضعها فى سيارته

١٩٥١ وأصدر عدة كتب قبل الثورة واستمر بالمجلة من العدد ٣ حتى العدد ٣٠ ولكن طوال الوقت كانت هناك مشاكل، فمثلا فطلب "محمد فؤاد جلال" وزير الإرشاد القومي إعادة النظر في هيئة تحرير المجلة، وأصر ثروت عكاشة على أنهم وطنيون، وشرفاء، وهو مسئول أن لا يجنح أحد فيما يكتب للماركسية.. وتصيد الوزير "محمد فؤاد جلال" لعبد الرحمن الشرقاوي نشره قصة عنوانها "الشاويش عبد الله" وادعى تعرضها للواء "محمد نجيب" لأنها تدور في السودان، وتصف أحواله، وكان محمد نجيب له أصول سودانية؛ فصدر الأمر باعتقال الشرقاوي، ولولا العلاقة المميزة بين عكاشة واللواء نجيب ما كان هناك إلغاء للأمر!!

ويكتب أحمد حمروش في كتابه "قصة ثورة ٢٣ يوليه": أنه بعد

ويتولى توزيعها بنفسه، وقد ضبط مرة ثم أفرج عنه لكنه مضى فى النشر والتوزيع، وابن الوزير ضحى بحياته من أجل المذهب الشيوعي إذ اعتقل في عهد مراكز القوى وهرس عظم ظهره الفقري ومات فى السجن.. والسؤال المطروح كيف تمكنت العقيدة الشيوعية من شباب مرفه يعيش فى القصور هل هي هواية أو ما يسمى بالإنجليزية (**Hobby**) مارسوها ضيقاً بحياة الترف التي كانوا ينعمون فيها.. إن الترف أحياناً يكون مصدراً للتبرم بالحياة، وكانت المنظمات الشيوعية التي تعمل في مصر تسمى بالأسماء التالية:"اللجنة المركزية للمنظمة الشيوعية المصرية"، وكانت تصدر نشرات إلى الطبقة العاملة."منظمة المقاومة الشعبية" التي كان يرأسها أبو سيف يوسف خلف، وكانت مهمتها توزيع الكتب الشيوعية على الطلبة والعمال، "نواة الحزب الشيوعى المصري" .وكانت تتولى طباعة تقارير ونشرات شيوعية على آلة طباعية أقامتها فى مكان سري، ومن أعضائها: بكر عبد الفتاح الشرقاوي، ومنصور نسيم، وزكي فريد إسكندر، وسمير توفيق حنا، وجوزيف يوسف (يهودي) منظمة "نحو حركة ديموقراطية تقدمية وطنية" وكان يختصر اسمها بكلمة (حدتو) ويرأسها صهيونيان أحدهما مليونير يدعى كوريل، والآخر يدعى دويك. والأول كان ينفق بسخاء على منظمته، ويعمل تحت ستار التجارة مع إسرائليين هما: أرنولد ريشفيلد، واسمه الأصلي هارون ريشفيلد، وسيمون سيتون.

خروجه من مجلة التحرير (حضر ثروت عكاشة من عند جمال ومعه قائمة بفصل معظم المحررين باعتبارهم شيوعيين واعترض عبد المنعم الصاوي، واتصل بعبد الناصر وأوضح له أن المجلة تسير على هدي منشورات الضباط الأحرار، واهداف الثورة فرضي ببقائهم).. وينكر عكاشة ذلك فعبد الناصر لم يقدم له قائمة بشيء، بل قابله في حضور خالد محيي الدين، وطلب منه أن تكون عينه مفتوحة ولا يكرر خطأ أحمد حمروش ويحذر من السيطرة الشيوعية على المجلة..

ونجحت المجلة، ولأنها مجلة الثورة سارع بالكتابة فيها: عبد الرحمن عزام، وطه حسين، ويوسف السباعي، وفكري أباظة، ومصطفى محمود، بل كتب فيها رجال الثورة: عبد الناصر، وخالد محيي الدين، وصلاح سالم. ولقد كتب "طه حسين" مقالا قال فيه (ما قام به الأحرار ثورة وليس حركة، ولا انتفاضة، فلم يكن الأمر انقلابا ضد الملك، بل ثورة شاملة كالثورة الفرنسية في يدها كود وخطة تنفيذية له)

كتب طه حسين وقال (أنا لا أخجل من أن أسميها ثورة لأنها بالفعل ثورة على أوضاع ظالمة وتحمل كل مبررات الثورة)، واستراح الضباط لقولة طه حسين وراجت مقولة "ثورة ٢٣ يوليو" ونسيت، ونسينا الحركة، والحركة المباركة، أما عبارة انقلاب فقد هوجمت بعد قيام الثورة بـ ٤٨ ساعة، واعتبر من يقولها من فلول العهد البائد..

وزاد توزيع المجلة، ولما كانت توزع كل أربعاء فقد بدا أنها تؤثر على توزيع مجلة مشهورة ثابتة هي "آخر ساعة" ورئيس تحريرها محمد

حسنين هيكل، وطلب عبد الناصر تغيير موعد الإصدار (للثلاثاء) بحجة أن المجلتين ستكسرا بعضهما البعض في التوزيع، وتجورا كل على قارىء الآخر. واعتذر عكاشة قائلا: (بأنه ما صدق يتابعه قارىء ويعرف تاريخ إصداره.. ولنترك التنافس للسوق) ولم يلح عبد الناصر.

وفي عيد الثورة الأول كتب ثروت عكاشة مقال الافتتاحية للمجلة بعنوان: "هكذا قمنا بالثورة" وكان المقال عن ما أداه سلاح الفرسان ليلة قيام الثورة، وقبل الطبع صدرت أوامر من صلاح سالم باعتباره وزيرا للإرشاد القومى وقتها بعدم الطبع، وعند رفع الأمر لمدير المخابرات، حاول أن يثني عكاشة عن المقال مع الموافقة على الطبع بدونه، لحساسية المقال فليس فيه إلا دور سلاح الفرسان في الثورة. وعرض الأمر على عبد الحكيم عامر فوافق على ما فيه، وسأل لماذا لم يرد اسم صلاح سالم بالمقال، وهو من الفرسان، فتعجب ثروت عكاشة وهو يفكر المشير أن صلاح سالم كان وقتها على قوة العريش؟! وفوجىء ثرت عكاشة بعد صدور العدد بالمقال، ببيان في الإذاعة من وزير الإرشاد يعلن فيه أن مجلة التحرير لم تعد تمثل حركة القوات المسلحة، واحتج ثروت عكاشة وقدم استقالته، كما قدم أعضاء هيئة التحرير استقالتهم..

وبشيء من الغضب قصد ثروت عكاشة دار الهلال التي تطبع المجلة فيها واستولى على أصول العدد المعد للنشر، مما أوقع مجلس قيادة الثورة في مأزق فصدر الأمر بتعيين عكاشة ملحقا عسكريا في "برن" واستعجل سفره، ويحكي عن ذلك ثروت عكاشة في مذكراته

(ولقد خيل لي أن الغرض من إبعادي عن المجلة كان إرضاءً لصلاح سالم، ولكن تبينت أن الغرض الحقيقى هو إبعادي عن سلاح الفرسان لما كان يعلمه مجلس الثورة من منزلة لي في قلوب ضباط السلاح، فقد صور لهم خيالهم المريض أني قد أستعين يوما بهذا السلاح في جولة من الجولات، ومما يؤكد ظني أن مجلس الثورة أبعد خالد محيي الدين كذلك وبنفس الطريقة بعد عدة شهور لسويسرا)

وبسفر عكاشة تحرك سلاح الفرسان وطلب الاجتماع مع مجلس قيادة الثورة، فذهب لهم عبد اللطيف البغدادى، فقال له الضباط: إذا كان هذا نصيب الرجل رقم ٢ في سلاح الفرسان، وقائد سلاح الفرسان ليلة الثورة فماذا سيكون نصيبنا نحن؟!

ولم يكن العقاب لرئيس التحرير وحده، بل شمل المحررين الذين قدموا استقالات من مجلة الثورة، وتم مصادرة الصحف التي راحوا يكتبوا فيها بعد ترك مجلة التحرير والتي هي بالأصل صحف ماركسية (الكاتب – الملايين – المعارضة – صوت الطلبة – الواجب) ثم ظهر في الصحف إعلان عن صدور جريدة التحرير اليومية، تصدر عن دار التحرير للطبع والنشر، وتبين أنها الاسم المؤقت لجريدة "الجمهورية" المقترحة قبل صدورها. وطلب عبد الناصر من هيكل تولي الإشراف عليها .

ويقول هيكل في كتابه "بين السياسة والصحافة": (واعتذرت لتمسكي بأخبار اليوم وعملى فيها، وصداقتي مع أصحابها، ثم إن الفارق بين الثورة والحكومة كبير– وإن كان في حالنا ضائع– ولكن الجمهورية تصدر عن

الحكومة، وأنا لا أتصور نفسي في جريدة حكومية؟! وأخيرا لأن الثورة لا تحتاج لجرائد، وكما اعتذرت عن مجلة التحرير في السابق، كررت الاعتذار عن الجمهورية.. ولقد كان اعتذاري عن مشروع (الجمهورية) سببا أضيف إلى دواعي الربط بيني وبين الأخوين أمين بأخبار اليوم؟!).

وصدرت الجمهورية في ٧ ديسمبر **١٩٥٣** خرجت من رحم مجلة التحرير في ولاده قيصرية لها العجب. وقعها عن صاحبها هيئة التحرير أي جمال عبد الناصر سكرتير عام الهيئة، وبتوقيع الضامن أنور السادات، وتعرضت لهزات عنيفة – بعد ذلك – نظرا للتغيرات السريعة والكثيرة في قيادتها فقد تطورت الأمور بعد ذلك بإثارة عبد الناصر قضية تطهير الصحافة..

ونظرا للغمز واللمز على صحف أخبار اليوم، نشر محمد التابعي في أخبار اليوم مقالا يدعو فيه لتشكيل لجنة لتطهير الصحف والصحفيين بأعمال قانون "من أين لك هذا"؟ ونشر هيكل في "آخر ساعة" مطالبا نقابة الصحفيين بإيقاف المصروفات السرية، ونشر كشوف المصروفات السرية في العهد الملكي!! ووجه صلاح سالم "وزير الإرشاد" وقتها كلمة من الإذاعة قال فيها: (هناك من باعوا أقلامهم في الماضي وهم يعرفون أنفسهم، وحركة الجيش لا تريد أن تشهر بهم، ولكننا مستعدون لتقديم كل ما لدينا من معلومات لنقابة الصحفيين).

ولما لم تتحرك النقابة، اجتمع صلاح سالم بمجلس قيادة الثورة، متصديا لقضية "تطهير الصحافة"، وقدم ما يفيد أن نصف أعضاء نقابة

الصحافة والبالغ عددهم اثنى عشر تقاضوا مصروفات سرية ومتورطين، وصدر قرار في ١٦ إبريل بحل مجلس النقابة وتشكيل لجنة تدير النقابة من (فكري أباظة، ووكيل وزير الإرشاد، ومحام عام، والمدير المالي لحسابات الحكومة).

وكان مصطفى القشاشي يشرف على الجمهورية، وفي نفس الوقت سكرتيرا عاما لنقابة الصحافة، وتبين أنه من المتورطين بالمصروفات السرية فاستبعد من الجريدة، وتم شطبه من نقابة الصحفيين، وبدأت متاعب الجمهورية.

وخرج "صلاح سالم" مرة أخرى ليعلن في سخرية بأن الصحافة فسدت كما تفسد الفراولة، وإذا فسدت الفراولة صارت سامة، وقال أنه يعلن حرب الفراولة على الفساد، وأعلن عن أسماء صحفيين وصحف متورطة في المصاريف السرية قال: "تصر الصحافة أن تنادي بالحرية والديمقراطية ورفع الرقابة ليأخذ الصحفيون المصاريف السرية". وذكر صحفا طلبت بسحب رخصها أو وقفها هي: روزاليوسف، الجمهور المصري، السودان، البلاغ، السياسة، بلادي، الدستور، المقطم، الزمان، صوت الأمة" ثم أعلن عن (٢٣) صحفي ثبت حصولهم على مصروفات سرية، وكان منهم أربعة يعملون في الجمهورية؟! ولكن الغريب أن يكون من هولاء الصحفيين (إحسان عبد القدوس،كامل الشناوي، السيدة فاطمة اليوسف، مرسي الشافعى، رخا، كريم ثابت، نعمة الله غانم، أحمد حسين المحامي، عبد الرحمن الخميسي)".

ولم تسلم الجمهورية من نقد عبد الناصر رغم تولي السادات أمرها؛ فقد اعترض على مقال للسادات، وعرف أن السادات ليس هو محررها، وإنما وضع اسمه عليها بعد أن أوحى بفكرتها لحسين فهمي، فقال له: (نقرأ على الأقل المكتوب.. أو بلاش مقالات لينا أصلا) ولم يكن كُتاب الجمهورية على رأسهم ريشة لأنها جورنال الدولة، فقد قبض على الدكتور عبد العظيم أنيس بسبب مقال له بالجمهورية عنوانه "الحركة الوطنية العربية" في حين عبد الناصر ينادي بالحركة القومية العربية، ووجه ناصر للسادات مرة آخرى اللوم قائلا: (حنرجع تاني للنشرة الشيوعية بتاعة مجلة التحرير.. افرز الكتاب مش عايز في جريدتنا كاتب أحمر).

ويحكي السادات لأنيس منصور أنه ذهب لزيارة الرئيس جمال عبد الناصر في يوليو ١٩٥٤ بأحد المستشفيات بعد إجراء عملية استئصال الزائدة له، ودار في تلك الأثناء حديث بين السادات وعبد الناصر عن صحافة الثورة، وتفاجأ في ذلك اليوم السادات بالرئيس يطلب منه الإشراف على إصدار أول صحيفة يومية تصدرها ثورة يوليو تتبنى أفكارها وتدافع عن سياساتها. وعقب يومين عاد السادات لناصر وأخبره أن الأمر مستحيل حيث إن هناك الكثير من التحديات التي تعرقل الأمر، فسأله عبد الناصر: "إزاي قمنا بثورة يا أنور وسط كل المصاعب اللي كانت حولينا، الثورة لا بد أن يكون لها صحافتها، والجريدة لابد أن تصدر قبل نهاية العام، لقد اخترتك لسبق تجربتك مع الصحافة".

وبالفعل قبل السادات فبدأ يتردد على "الهلال"، يسأل ويستفسر

ويستمع إلى نصائح والخبراء في الإدارة والتحرير والتوزيع والطباعة والإعلان واستأجر شقتين بالطابق الخامس في إحدى العمارات الجديدة في ٣٦ شارع شريف، واجتمع مع مجموعة تم اختيارهم للعمل معه بالجريدة، وكان على رأسهم حسين فهمي الذي تم ترشيحه ليكون أول رئيس تحرير للجريدة الجديدة. وكنا كلما غضب ناصر على الشيوعيين قمنا برفت نصف الجورنال فاليسار والماركسيون كانوا من أفضل كتاب مصر – وقتها – وفي وقت من الأوقات كان عبد الناصر غاضبا من الشيوعيين فاعتقل منهم ٢٠٠ من القيادات الماركسية!

وشهدت الجمهورية خلافات في التحرير، وتوالى عليها رؤساء مجالس الإدارة ورؤساء التحرير؛ فعين بعد السادات (صلاح سالم، وبعده كمال الحناوي) وشهدت "الجمهورية" جانبا من الصراع بين ناصر وعامر ففرض المشير عامر "حلمى سلام" رئيسا لمجلس إدارة دار التحرير ورئيسا للتحرير، وكان – مشروطا عليه عند تعيينه تخفيف العمالة – فنقل ٤٠ من المحررين لإدارات العلاقات العامة بمؤسسات الدولة، وكان منهم (عبد الرحمن الخميسي، وإبراهيم الورداني) ولم تمض الأمور هادئة حتى طلب حلمي سلام من المشير عامر التدخل، فأرسل له المباحث الجنائية العسكرية للتحقيق؟! ورابط أفراد المباحث أربعة ايام في دار التحرير واعتقلوا بعض الموظفين للتحقيق معهم. وتدخل عبد الناصر فأعفى حلمى سلام، في ١٨ مايو ١٩٦٤، وعين "فتحي غانم" للإشراف العام ورئيسا للتحرير، وتقرر أن يكتب "علي صبري" المقال الافتتاحي

باعتباره الأمين العام للاتحاد الاشتراكي، فرأى الفصل بين رئاسة التحرير ومجلس الإدارة وعين (مصطفى بهجت بدوي) لمجلس الإدارة.

وقد بلغ حجم الفوضى في جريدة الجمهورية إلى حد أن مدير المباحث العامة أرسل خطابا لمدير عام مصلحة الاستعلامات، أشار فيه إلى الخناقات اليومية بالجريدة لتضارب السلطات والانقسامات الحادة بداخلها حتى أن القيادة العامة أصدرت بيانا جاء فيه "مع تقديسنا لحرية الصحافة وللحريات، نناشد صحافتنا الرشيدة أن تعلو بنفسها وبقرائها عن الاسترسال في نشر مخازي العهد السابق، وأن تتجه للعهد الجديد لبحث مشكلاتنا وتصحيح الأوضاع ودراسة المشروعات التي تساعد على خلق وعي قومي مستنير"، وكان المقصود جريدة الجمهورية وجريدة أخبار اليوم.

وفي كتاب «جمال عبد الناصر» لأحمد أبو الفتح ورد فيه: "أعطى عبد الناصر شركة الإعلانات الشرقية وكل مبانيها ومطابعها وجرائدها وإعلاناتها، التي كانت تمثل أكبر قوة إعلانية في مصر، إلى دار التحرير التي تصدر جريدة الجمهورية وهي كلها من أملاك "آل أبو الفتح" التي أممها عبد الناصر والآن شركة الإعلانات الشرقية مفلسة، وجريدة الجمهورية في الحضيض".

جريدة "المصرى".. البقعة السوداء في نظام ٢٣ يوليو؟!

وصف الكاتب الصحفي محمد حسنين هيكل
إغلاق جريدة «المصري» ومحاكمة «أبو الفتح» ومن ثم مصادرة أملاكهم،
بقوله «كانت من البقع أو من الظلال التي سقطت على كل نظام ٢٣ يوليو».

وأضاف «هيكل»: الموضوع شديد الحساسية لعدة أسباب، أولها لأنه يتصل بلحظة شديدة الالتباس في التاريخ المصري، وهي أزمة مارس ١٩٥٤ وأنا أعتبر كل ما قلته هامشًا تاريخيًا على حوادث مارس، وأظن أن أزمة المصري لا تزال حتى هذه اللحظة مثار جدل طويل جدًا، وهي مسألة مهمة جدًا بالنسبة للبلد، وبالنسبة للحياة السياسية فيها، وبالنسبة لضميرها السياسي ومضى قائلًا: «هنا أفتكر باستمرار كلمة شهيرة لمدام دوستال- وهي مفكرة عاشت في وقت الثورة الفرنسية - لكن في الآخر وهي بتشوف الثورة والتجاوزات قالت إيه؟ قالت كلمة شهيرة: أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك. ومعاها بنقول: أيتها الديمقراطية كم من الجرائم ترتكب باسمك. مبادئ كثيرة جدًا أسأنا استعمالها، من أول الديمقراطية للحرية للاستقرار».

تعرف جمال عبد الناصر على أحمد أبو الفتح عام ١٩٤٩ عن طريق صهره ثروت عكاشة، فهو زوج شقيقته، الذي كان عضواً مرموقاً في تنظيم الضباط الأحرار، ولم ينس جمال عبد الناصر له أنه كان وراء

التحذير الشهير بأن القصر يعرف بأمر التنظيم، وأنه على وشك القبض على ١٤ ضابطا ممن ينتمون إليه، وعن ذلك يتحدث ثروت عكاشة في مذكراته (بين السياسة والثقافة) فيقول (في ٢٠ يوليو ١٩٥٢ وفي وجود حسين الشافعي في منزلي اتصل بي تليفونيا أحمد أبو الفتح من الإسكندرية ليبلغني بتغيير وزاري طلب فيها الملك تعيين (حسين سري عامر) وزيرا للحربية ويفصح عن معرفة حسين سري لـ ١٤ضابط ممن ينتمون لنا وينصح بتحرك سريع، فالوقت قد لا يسمح للانتظار حتى ٥ أغسطس ١٩٥٢ الموعد الذي اتفقنا عليه لقيام حركتنا. ولثقة عبد الناصر في ما وصله من معلومات، اقترح أن يكون الغد موعدنا للقيام بالحركة، مستغنيا في القيام بحركتنا عن المشاة التي كنا نرقب وصولها من "سينا". لقد وجدنا أنفسنا أمام موقف جديد كدنا فيه نؤخذ على غرة ولكن التدابير والاستعداد جعلا كل شيء يتم في ليلة ٢٣ يوليو).. ويقرر بعدها (كان أحمد أبو ألفتح صوتا مسموعاً لدى مجلس الثورة، ثم أنه كان حلقة الاتصال بين الثورة وحزب الوفد في تلك الفترة، حتى أن اتصالا منه في ٢٥ يوليو١٩٥٢ ترتب عليه القبض على مصطفى أمين، وعلى أخيه علي أمين، بحجة اتصالهما بلندن لهدم حركة الجيش في مصر (تبين كذب ذلك)..).

لكن وحسب تفسير هيكل في كتابه: (لمصر لا لعبد الناصر) بدأت الخلافات تدب في العلاقة بينه وبين جمال عبد الناصر مع بداية عام ١٩٥٣ وكان لهذه الخلافات سبب سياسي هو تفسير كل منهما

للديمقراطية (كان جمال عبد الناصر يرى أن أي تعبير سياسي يأتي انعكاسا لحقائق اجتماعية واقتصادية وإذا كان المطلوب إقامة ديمقراطية سياسية سليمة في مصر تعبر عن رأي الاغلبية وسلطتها فإن ذلك لن يتأتى إلا إذا كانت الحقائق الاجتماعية والاقتصادية في الوطن تعطي لهذه الاغلبية وزنها وثقلها).

وكان رأي أحمد ابو الفتح يختلف عن ذلك؛ فقد كان يرى أن حل مشكلة الديمقراطية هو (بإجراء الانتخابات فوراً حتى لو أدت إلى إعادة العناصر القديمة إلى السلطة، وأن على الجيش أن يعود لثكناته) وحين ألغت الثورة الأحزاب، والوفد، ووضعت زعامة النحاس في الظل كانت شرارة حرب الجوافة "أقصد الصحافة في رأي صلاح سالم" قد بدأت من الإخوة الثلاثة لآل أبو الفتح، وكانوا قادرين ويملكون العدة والعداد، فهم أغنياء وتجار لهم علاقات خارجية ومعهم جريدة المصري أول جريدة لها مطابع خاصة وتشتري ورق الطباعة بالسنة.

أما كيف احتدم الخلاف بين جريدة المصري وحركة الجيش؟! فالبعض يرجعه لطلب تقدم به صلاح سالم للأخ الأكبر محمود أبو الفتح لتوفير ٤٠٠ طن ورق للسودان، على أن يتم ردها خلال شهر أو دفع ثمنها. ولم يكن الأمر إلا مؤامرة على المصري بسحب الورق منه فلا يستطيع الاستمرار في الإصدار أو على الأقل يصدر بغير انتظام مما يسهل إيقافه فالجيش في الحقيقة لا رد الورق ولا سدد ثمنه!

ولم يكن محمود أبو الفتح مؤسس جريدة «المصري» وحسب،

فإليه ينسب الدور الأكبر في تأسيس نقابة الصحفيين عام ١٩٤١، وتكريمًا لهذا الدور جرى انتخابه كأول نقيب للمهنة. وقد تمتع محمود أبو الفتح بعلاقات جيدة مع ملوك وزعماء عربيين، ويقول الكاتب الصحفي عبد الرحمن فهمي ابن شقيقته إنه «كان يتكفّل بجميع نفقات الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة كلما جاء إلى مصر، إذ كان يعوّل عليه لإنهاء الاستعمار الفرنسي لبلاده» وهو ما جعل بورقيبة يأمر بنقل جثمانه على متن طائرة خاصة من سويسرا إلى تونس حيث مرقده الأخير عام ١٩٥٨ بعد أن سحب منه ناصر جنسيته المصرية، وحكم عليه غيابيًا بالسجن ١٠سنوات وتغريمه ٣٥٦ ألف جنيها..

ويقول الصحفي اللبناني زهير عسيران، مراسل صحيفة «المصري» في بيروت آنذاك وصديق أسرة «أبو الفتح»: «على أثر الخلاف بين نظام الضباط الأحرار وآل أبو الفتح الذين شردوا خارج مصر، طرأت فكرة إنشاء إذاعة تعمل ضد النظام الجديد في مصر. فاجتمع في بيروت محمود أبو الفتح مع بعض المنتسبين إلى جماعة الإخوان المسلمين وتقرر في ذلك الاجتماع إنشاء إذاعة في لبنان تعمل ضد النظام في مصر. لكن السؤال كان:كيف؟ وأين يكون مقر هذه الإذاعة؟ فرددت على السؤال فورًا: توضع في منزلي. قلت ذلك وأنا لا أعرف كيف يتم ذلك. فاتصلت بالسيد لويس رزق المهندس بإذاعة لبنان للاستعانة بخبرته» يمضي قائلًا: «أطلعته على فكرة الإذاعة، وسألته عن إمكانية إقامتها في المنزل فنيًا، فقال: بالإمكان وضعها في غرفة خاصة شرط ألا يدخلها أحد. وولدت

الإذاعة باسم صوت مصر الحرة موجهة نحو القاهرة وانطلقت «صوت مصر الحرة» بهجوم شديد على نظام جمال عبد الناصر».

وفي كتاب «سنوات الغليان» أرفق «هيكل» وثيقة لخطاب منسوب إلى محمود أبو الفتح، وممهور بتوقيعه، وقال إن «أبو الفتح أرسله باسم لجنة أحرار العرب (مصر الحرة) إلى رئيس الوزراء البريطاني، أنتوني إيدن، في ٢٧ يناير ١٩٥٦، ودعاه فيه إلى استعمال القوة المسلحة ضد مصر، وطلب أموالا بطريقة مكشوفة لتمويل الدعاية ضد خطر عبد الناصر».

وتزيد في التفاصيل د. ليلى عبد الحميد في كتابها: (تطور الصحافة المصرية من ١٩٥٢ إلى ١٩١٨) والذي كان مقررا علينا في دبلوم الصحافة بجامعة القاهرة، ترى أن مقالا نشره أحمد أبو الفتح في ٢١ مايو ١٩٥٣ عنوانه "نعم للدستور" هو السبب في الحرب فقد قال فيه (بعد حركة الجيش بـ١٠شهور لا فرق بين الضباط الأحرار والملك فاروق، لا تزال الأحكام العرفية، والمعتقلات التي فتحت مع حريق القاهرة، والرقابة على الصحف والرسائل بل أن وزير الإرشاد يرسل البوليس ويحاصر المطابع ويصادر ما يطبع، لأن المكتوب لا يعجب حضرته، أما العجب إلغاء الأحزاب فكيف تحكمون؟ نريد دستورا لنعرف من يحكم؟ وكيف نحكم؟! وما هي حقوقنا) وكان المقال للرد على حديث نشر لصلاح سالم وزير الإرشاد، عن الباكين والمتباكين على الدستور الذي لم يقدم ولا يؤخر رغم وجوده في عهد الملكية الفاسدة، ونشرت الأخبار ردا من صلاح سالم محتجا على أن عهد الثورة استمرار لعهد فاروق..

ويقول الراحل أحمد يحيى، في تقديمه لكتاب «جمال عبد الناصر» لأحمد أبو الفتح نفسه الذي نشرة أحمد يحيى بعد وفاة عبد الناصر بمكتبته (المكتب المصري الحديث): «بكل المقاييس فإن آل "أبو الفتح" ظاهرة قيل فيها وعنها الكثير، فحين يقال إن آل أبو الفتح كانوا على صلة بالضباط الذين صنعوا انقلاب يوليو، فإن الصحيح أن يقال إنهم شركاء اختلفوا وكان محتمًا أن يختلف بهم الطريق فالمصري صحيفة آل "أبو الفتح" وفدية الهوى منسوبة إليه ومحسوبة على فكره، هي كالحزب الذي تمثله مع الليبرالية فكرًا ومدرسة وإعلامًا أيضًا، ولذلك فإن تحالف أصحابها مع الضباط أي ضباط،كان يعني أنهم على طريق الردة..كانوا بالحساب خاطئين طبعًا مع شمولية التوجه وسيادة الرأي الواحد للعسكر، ولأن البدايات كانت خطأ في الحساب، فإن المسار كله تعثر بعد ذلك.

وفي كتاب أحمد أبو الفتح هجوم موسع على الثورة وعبد الناصر فيقول:

"عندما تنازل الملك فاروق عن العرش، ذهب الصحفي إحسان عبد القدوس للقاء أحمد أبو الفتح في مقر جريدة المصري، ويقول أحمد أبو الفتح عن ذلك اللقاء: «قال لي إحسان عبد القدوس يومها: أرجو ألا تغرق في التفاؤل فإننا مقبلون على حكم عسكري ديكتاتوري» وبعدها بأيام بدأت الشكوك تتراكم فعندما تقرر تشكيل مجلس وصاية على عرش الملك أحمد فؤاد أبن فاروق، يقول «أبو الفتح»: «قانونيًا،كان يتعين على الأوصياء على العرش حلف اليمين أمام

البرلمان، لكن البرلمان الأخير حلته وزارة نجيب الهلالي، فقرر مجلس الثورة إحالة الأمر إلى مجلس الدولة برئاسة (السنهوري) لاستصدار فتوى دستورية، فقرر الأخير جمع المستشارين الإداريين دون القضائيين، وصدر قرار تشكيل مجلس الأوصياء دون انعقاد البرلمان» في ذلك اليوم، يقول أحمد أبو الفتح إن الدكتور وحيد رأفت دعاه للقائه في منزله الكائن بالمعادي، ويضيف في كتابه «قال لي بصوت تخللته رعشة: لقد مُزق الدستور اليوم، فالإجراء غير قانوني، إذ يحتم القانون دعوة جميع المستشارين الإداريين والقضائيين، وأبعد القضائيون لأنهم كانوا لا يستطيعون مخالفة القانون» وفي موضع آخر، ينكر «أبو الفتح» على عبد الناصر «التوسع في جلب أدوات التسجيل للتجسس على الناس» مشيرًا إلى «مؤامرة الصولات»: «قال لي عبد الناصر وهو يضحك: اكتشفنا أن أحد الصولات يعد انقلابًا.. لقد اتصل ببعض الصولات وقال لهم: لماذا ينفرد الضباط بأمر البلاد، إننا نستطيع القيام بما قاموا به. ودخل بعض الضباط مسكنه وسجلوا اجتماعاته».

وفي ٢٧ أبريل ١٩٥٤ أحيل أحمد ابو الفتح إلى محكمة الثورة، وكان قرار الادعاء ضده ينص على: (أنه أتى أفعالا ضد سلامة الوطن من شأنها إفساد أداء الحكم وذلك أنه في غضون عام ١٩٥٤ وما قبلها ارتكب الأفعال التالية:

(١) قام بدعايات واتصالات ضد نظام الحكم القائم بقصد تقويض النشاط القومي للبلاد.

(٢) أغرى موظفا عموميا بطرق غير مشروعة على المساهمة في إتمام صفقة تجارية لمصلحته الذاتية).

(وفي يوم ٢ مايو ١٩٥٤ أصدرت محكمة الثورة حكمها وكان الحكم إلى جانب السجن والمصادرة ينص بالحرف الواحد على (سحب رخصة جريدة (المصري) منه، وبذلك تعطل الجريدة عن الصدور ابتداء من ٢ مايو ١٩٥٤ وكان تشكيل محكمة الثورة من: (عبد اللطيف البغدادي رئيساً وأنور السادات عضو يمين وحسن إبراهيم عضو يسار، ثم عرض الحكم على محمد نجيب فصدق عليه).. وبعد صدور أحكام الثورة بحق «أبو الفتح» قرر مجلس القيادة مصادرة جميع ممتلكات الأسرة؛ فأغلق مقر «المصري» في شارع قصر العيني، وصادر مطابعها في بولاق، ومنزل محمود في الزمالك. ويقول أحمد أبو الفتح، أصغر أفراد الأسرة، وصديق عبد الناصر القديم، ورئيس تحرير «المصري»، إنهم "أول أسرة مصرية صميمة تصادر حركة الجيش أملاكها"

وفي بورسعيد، وبمناسبة عيد النصر ٢٣ ديسمبر ١٩٦١ ألقى الرئيس الراحل جمال خطابًا تطرق فيه إلى نشاط «آل أبو الفتح» وحكى خيانتهم قائلًا: (مؤامرات ضدنا في الإذاعة، بعض الخونة المصريين اللي مشيوا بره واللي كانوا بيشتغلوا وبيستغلوا أيام الوفد بيطلعوا يتآمروا وبيروحوا يقدموا خدماتهم لفرنسا ولإسرائيل: أحمد أبو الفتح،حسين أبو الفتح).

ويستطرد هيكل في كتابه:(لمصر لا لعبد الناصر): (ولعل أكثر يوم شعرت فيه بأبعاد أزمة أحمد أبو الفتح هو يوم أتيح لي أن ألتقي شقيقه

محمود أبو الفتح في بيروت، في شهر يناير من سنة، ١٩٥٤ كنت عائدا إلى دمشق عن طريق بيروت، وفي فندق (سان جورج) التقيت محمود أبو الفتح ووقفنا في ردهة الفندق نتبادل أحاديث مجاملات، ثم سألته عن أحمد وكان قد غادر القاهرة الى جنيف، وقال لي محمود: إنه يريد أن يجلس لحديث طويل معي عن العلاقات بين جمال عبد الناصر وأحمد أبو الفتح، وجلسنا نحن الاثنان تلك الليلة في ركن من صالون (السان جورج) نتحدث حتى الساعة الرابعة صباحاً. (وبعد أيام من عودتي إلى القاهرة كان محمود أبو الفتح قد اتصل بالدكتور السيد أبو النجا المدير العام لجريدة (المصري) وقتها وطلب منه أن يتصل بي لكي نرتب ما اتفقنا عليه في بيروت، وكنا قد اتفقنا على ترتيب مقابلة بين جمال عبد الناصر وأحمد أبو الفتح، والتقيت مع السيد أبو النجا، وكان يريد أن يستوثق من نقطة معينة هي أن أضمن عودة أحمد أبو الفتح إلى جنيف مهما كانت نتائج مقابلته مع جمال عبد الناصر، وتعهدت للسيد أبو النجا أن أكون في استقباله، وأن أكون في وداعه.. وجاء أحمد أبو الفتح وذهبنا معا إلى بيت جمال عبد الناصر وجلسنا ثلاثتنا لحديث طال أربع ساعات، وفي الواقع كان الحديث بين الاثنين، وكنت أتابع ما يدور بينهما صامتا، أتدخل أحيانا عندما تظهر عقدة في حباله، لكن الخلاف كان واضحا بين الاثنين في الآراء والمواقف. (وارتفعت درجة حرارة الحديث مرتين: مرة عندما أثار جمال عبد الناصر مسألة الاتصالات التي يقوم بها أحمد أبو الفتح في أوروبا وفي العالم العربي خصوصا مع نوري السعيد رئيس وزراء العراق وقتها، والمروج لفكرة حلف بغداد وكان رد

أحمد أبو الفتح أن علاقات أخيه بنوري السعيد هي علاقات رجل أعمال يورد مهمات لمشروعات تنفذ في العراق إلى جانب اهتمامه بتوريد السلاح كوكيل لبعض شركاته؛ فلماذا تقفون في وجه مصالحنا، وقد أخذتم ما عندنا بمصر؟

وكان رأي جمال عبد الناصر . بناء على معلومات لديه . أن العلاقات والاتصالات فيها عنصر سياسي وموقف ضد الثورة (ثم ارتفعت درجة حرارة الحديث مرة أخرى عندما تساءل أحمد أبو الفتح: (لماذا تضار مصالح أخي محمود في مصر ولا يحصل على حقه؟) وسأله جمال عبد الناصر: (وهل حدث ذلك؟) ورد أحمد أبو الفتح: (نعم إن أخي تقدم لمشروع أتوبيسات النقل في القاهرة ولكن عبد اللطيف أبو رجيلة أخذ المشروع، ولم يأخذه محمود أبو الفتح، ثم ان محمود أبو الفتح تقدم وكيلا عن شركة سلاح يعرض بندقية من عيار ٨٦ وهذه هي البندقية التي أقرت لحلف الأطلسي ومعنى ذلك أنها ممتازة، ولكن اللجنة العسكرية التي تشرف على مشتريات السلاح عندكم رفضتها..كنا نريد أن نفيد بلادنا بهذه الصفقة).

وبدت الدهشة على وجه جمال عبد الناصر وسأل: (وهل تتصور أن لي علاقة بذلك؟ إنني لا أتدخل في مثل هذه الشئون، هذه مسائل تقررها الوزارات المسئولة)، وبدا الضيق على ملامح جمال عبد الناصر وشاع الأسف في نبرة صوته، وهو يقول بالحرف (جرى إيه يا أحمد.. أتوبيسات إية وبنادق إيه؟) وكان واضحا أمامي أن الحديث سار إلى

طريق مسدود، وذهبت أودع أحمد أبو الفتح طبقا لما تعهدت به، وأقلعت الطائرة التي استقلها إلى جنيف.

ويكتب الدكتور عاصم الدسوقي، أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة حلوان يقول: إن خلاف أسرة أبو الفتح ومجلس قيادة الثورة بدأ بعد قرار حل الأحزاب السياسية في ١٦ يناير ١٩٥٣ معقبًا: «هنا بدأت ردود الأفعال في الظهور، فالذي كان مرتبطًا بحزب كان مرتبطًا أيضًا بمصير ومستقبل، لذا بدأ البعض يشعر بخطورة اتجاهات الثورة، وبدأت معركتهم للدفاع عن مصيرهم». ويضيف «الدسوقي»: «محمود أبو الفتح ترك مصر إلى بيروت ومنها إلى سويسرا، واختار الأخيرة لأنها كانت بلدًا محايدًا بموجب نظام الأمم المتحدة عام ١٩٤٥، ولا يمكن اعتقال أحد فيها، ولا يمكن مصادرة أموال مودعة في أي من بنوكها، وبعد قرار حل الأحزاب وبعد انكشاف سياسات الثورة أمام العالم بدأت مساعي الغرب للقضاء على الثورة بإعادة الملك فاروق. هنا جاء دور محمود أبو الفتح» يقول «الدسوقي: «المخابرات المصرية علمت بنشاطه بفضل اتصالاتها، ورأى جمال عبد الناصر أن يقطع الطريق على هذه المساعي فعجّل بإعلان الجمهورية في ١٨ يونيو ١٩٥٣. ولقد اطلعت، خلال زيارتي إلى جامعة أكسفورد عام ١٩٧٤، على وثائق في دار المحفوظات البريطانية حول محمود أبو الفتح ونشاطه».

التابعي.. أمير الصحافة والنساء؟!

سافر محمد التابعي إلى الهند، وكان معه أنيس منصور، وخرج عليهما في "كلكتا" إحدى ولايات الهند، فقير هندي بجرابه مجموعة من الثعابين وطلب من كل منهما "روبية" وهي عملة هندية، مقابل أن يقول لكل منهما اسم من يحب؟! وكتبت الثعابين للتابعي اسمها على الرمال "أيلي أو آمال"، وتعجب التابعي فلم يكن هذا الاسم ضمن أحد من نساء قبيلة قلبه، ولكنه بعد سنوات اكتشف أن "أسمهان" اسمها الحقيقي في شهادة الميلاد "آيلي" وكانوا يقولون لها في أسرتها على سبيل التمصير"آمال"!!

ويرى أنيس منصور، التابعي مدرسة صحفية فريدة، وهو الذي خرج على يده تلاميذ أسسوا مدارس صحفية فيما بعد مثل مصطفى أمين وعلي أمين ويتابع: "كلنا كنا بنشوفه حاجة كبيرة، وكان يبهرني عندما يكتب ويقول: «قال لي الملك وقلت له» فحجم علاقاته ونوعيتها ليست في متناول إلا عدد قليل من الكتاب" وأشار إلى أن «التابعي»كان رجلا أنيقا في ملبسه و«آخر أبهة»، وكان الاقتراب منه ليس سهلا، لكنه في نفس الوقت كان خفيف الظل ولديه حكايات كثيرة ليست في متناول أحد.

ويكتب عنه مصطفى أمين في كتابه (مسائل شخصية) فيقول:"كانت مقالاته تهز الحكومات، وتسقط الوزارات، ولا يخاف ولا يتراجع، وكلما سقط على الأرض قام يحمل قلمه ويحارب بنفس القوة ونفس الإصرار.. كان

معبودا للنساء قضى حياته أشبه ما يكون بقصة دونجوان أو كازانوفا، قلبه أشبه بمسرح تمثل فيه كل سنة قصة غرامية عنيفة.. إذا أحب عشق وإذا كره غشي، وإذا استمتع بالحب كتب أروع وأحسن الكلمات.كان أحد ملوك الصحافة عاش حياته بالطول والعرض، ذاق الفقر والحرمان واستمتع بحياة أصحاب الملايين، عشق الراقصات والأميرات، نام على مقعد في بدروم عمارة أحمد شوقى ونام في الجناح الملكى بفندق جورج سانك بباريس، عرف الجوع وكان طعام عشائه في بعض الليالى سميطة وبيضة ثمنها في تلك الأيام ٥ مليمات، ثم بعد سنوات قليلة يقيم في بيته مآدب ملكية يحضرها الوزراء والعظماء، وتغني فيها أم كلثوم أو أسمهان أو ليلى مراد.

ولم يحدث في تاريخ الصحافة أن عاش صحفي في المستوى الملكي الذي عاش فيه التابعي، وكان يجد متعة غريبة إذا جلس مع أمراء أو كونتيسات في سفرياته بالخارج أن يدفع هو الحساب، وكان يجد متعة أن ينافس البارون روتشيلد على غرام حسناء، ولم يخطر ببال أحد من هؤلاء الأمراء أن التابعي استدان مصاريف الرحلة قبل سفره من الخواجة "ساسون" تاجر الورق الشهير في تلك الأيام.

عمل موظفا في البرلمان، ولم يكتف بالوظيفة فعمل ناقدا مسرحيا بجريدة الأهرام، فنشر أول مقال مسرحي ينشر في الصفحة الأولى في تاريخ الأهرام، وخشية على وظيفته وقع المقال باسم مستعار "حندس" وأصبح حندس في يوم وليلة ناقدا مشهورا وأطلق عليه الفنان يوسف وهبي "الكاتب الذي يسقيني السم في برشامة".

إنه محمد هكذا الاسم في شهادة الميلاد، ولكن الأم أضافت له التابعي تبركا بالشيخ التابعي، فهو الولد بعد ٤ بنات، فالتابعي كان ديك البرابر وبالصدفة دخل محمد التابعي للصحافة، فقد رد على هجوم صحيفة "الإجيبسيان ميل" على مظاهرات ثورة **١٩١٩** بمقال كتبه بالإنجليزية، فنشره له رئيس التحرير مستر "أوفارول"، ودعاه لمقابلته، ليصيرا صديقين. وكان يشرف في نفس الوقت مستر "أوفارول" على مجلة فنية مهتمة بالمسرح اسمها (سفنكس) وقد قال التابعي رأيا وهما يشاهدان مسرحية "غادة الكاميليا" معا فطلب منه كتابته، وهكذا تورط التابعي في بلاط صاحبة الجلالة،كتب في المسرح ولأنه موظف ويخاف على وظيفته وقع باسم (حندس) ومع المسرح وقع في غرام ممثلات المسرح، ومنهن "فاطمة اليوسف" ومعها دخل للسياسة بمجلتها روزاليوسف!

وفي المجلة يتورط حتى يدخل السجن بمقالاته الهادرة الثائرة، وقد وجهت له تهمة سب وقذف الملوك ليس في مصر ولكن في أوربا، وحكم عليه مع إيقاف التنفيذ، ولكن في عام **١٩٣٣** حكم عليه بالسجن ٤ شهور مع النفاذ.

وعلى حدود مصر كانت السماء تعد قدرا جديدا للتابعي؛ فقد ضمن سعد زغلول، عائلة ملكية هاربة من الشام، ومن جبال الدروز تحديدا (أسمهان وأسرتها) فدخلوا بدون باسبور، وتغير كل شيء بعد أن كان الصراع بين عبد الوهاب وأم كلثوم، أصبح بين أسمهان وأم كلثوم،

ورقص أبو الهول مع فريد الأطرش وسامية جمال، بعد أن كان (السفنكس) وحيدا بالصحراء.

أما أغرب ما حدث فهو الذي حدث لمحمد التابعي، الرجل الذي أقسم ألا يتزوج، وبالرغم من أنه عاش معظم حياته أعزب وعازفا عن الزواج، وتأثر بهذا المنظور إحسان عبد القدوس وكان مرتبطا به ذلك الوقت بمجلة روزاليوسف؛ فقال له التابعي: لا دخل لك بأسلوب حياتي وسعى بأن يجمعه بمن يحب وبالفعل كتب كتابهما بمكتبه.

تحول التابعي الذي كانت هوايته أن يجمع قلوب الممثلات والراقصات كأنه يجمع طوابع البريد إلى طلب الزواج والإلحاح فيه، تحول ليكون أحد طوابع البريد الملصقة في الألبوم الخاص بأسمهان!؟ تحول التابعي من سميع معجب بعبد الوهاب ضد أم كلثوم إلى معجب ولهان "بأسمهان" ضد الجميع!! حتى أن عبد الوهاب بعد أن كان إذ زار التابعي ذهب إلى غرفة نومه وفتح دولاب ملابسه وأخذ منه ما يعجبه من أربطة العنق اكتفى في علاقته به بالتليفون بعد أن أصبح لا يسمع إلا أسمهان.

التابعي أحد الصحفيين الذي قرر أن يكون ملكاً حتى أنه كان إذا ذهب إلى باريس أو لندن سأل عن الفندق الملكي ولم ينزل إلا فيه!! فالتابعي الذي ذاق الفقر والحرمان قرر أن يذوق الكافيار والنبيذ، وبعد أن كان يركب الباسكليت في تنقلاته من المجلة إلى المطبعة، أصبح البشوات يحسدونه على ماركة سيارته. فقد كان شعار التابعي "وأما بنعمة ربك فحدث" ولكنه كان يفهم الآية خطأ، فكان يحدث النساء بذلك

دون الرجال، يعطي امرأة يعجب بها في أول لقاء خاتم "سولتير" ويعطي أصدقاء عمره في أعياد ميلادهم قلم حبر رخيصا، ولم يستثن من ذلك إلا عبد الوهاب!! فلم يحدث في تاريخ الصحافة المصرية أن عاش صحفي في المستوى الملكي الذي عاش فيه التابعي، وقد قلده فيما بعد في غرامه بالسيجار والماء المعدني آخر تلاميذه محمد حسنين هيكل.

ولكن أحداً في بلاط الصحافة كلها ما استطاع أن يقلده في دونجوانيته ولا في أسلوبه حتى مصطفى أمين نفسه؛ فهو الذي اعترف في كتابه "شخصيات لا تنسى" أن التابعي سلطان العشق، وكتب عنه تحت عنوان "سلطان الحب في القرن العشرين" وقد نسي أنه صانع الصحف: المصري، وروزاليوسف، وآخر ساعة؛ ففي الوقت الذي كانت فيه مشغولة بمن يكون البرنجي (أي الأول) يوسف وهبي أم الريحاني – العقاد أم طه حسين – تحية كاريوكا أم سامية جمال!!

أجمع الجميع على أن (برنجي) الصحافة هو محمد التابعي.. اعترف بذلك الجميع، فها هو مصطفى أمين يكتب للتابعي من واشنطن في ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٥٢ يقول "أستاذي العزيز أقبلك ملايين القبلات وأرجو أن تكون موالياً على التمرينات في النادي الأهلي، وقبل كل شيء لا أعرف كيف أشكرك على اهتمامك بمقالة "طظ في أمريكا" ووضعها في الملزمة الملونة!!

وكان التابعي – كما يقول مصطفى أمين – قوياً مع الرجال، ضعيفاً مع النساء، وكان لا يثق في أي رجل بسهولة، ولكنه يثق في أي امرأة

بسهولة، وكان أستاذاً في جذب النساء بكل اللغات وكل الأجناس، فقد كان مولعاً جداً باللغة الإنجليزية ويجيد الفرنسية وكان يستطيع أن يكتب مقالات بالإنجليزية، وبلغت درجة إجادته بها إلى اختياره مترجماً للبرلمان المصري سنة ١٩٢٤ رغم أنه تقدم معه حاملو درجات علمية من جامعتي أكسفورد وكامبريدج.

ويبدو أنه كان بالتابعي عقدة معينة؛ فقد كان يحب أن يظهر بين الجميلات ويظهر أنه كان يرسل صور رحلاته إلى المجلات التي يعمل بها لذلك ويكتب هو التعليق، فقد كان يخاف أن يطاله الشيب أو يتمكن منه الزمن. وضحك التابعي على الزمن وعاش في خدعة طويلة فقد استطاع أن ينكر من عمره عشرة سنوات، وحصل على جواز سفر في الأربعينات أنقص فيه عمره عشرة سنوات كاملة، وتعامل مع الدنيا على هذا الأساس.

وفي يوم وليلة أصبح التابعي ليس أحد كبار كتاب مصر فقط بل والشرق العربي فهو ملك الورقة والقلم. أما أسمهان فهي ملكة حقيقية وكانت لها أحلام مع المخابرات البريطانية في أن يجعلوها شخصية اجتماعية مرموقة في لبنان، وحينما تجاهلتها بريطانيا اتجهت إلى الجنرال الفرنسي "كاترو" وكان ذلك في تلك الفترة التي كانت فيها سوريا ولندن مسرح صراع حقيقيا بين عوامل وأهداف سياسية بعد الحرب العالمية الأولى..

ويقول "يوسف الحكيم" في كتابه "سوريا والانتداب الفرنسي" أن أسمهان فرش لها "الجنرال كاترو" قصراً خاصاً بين عاليه ويحمدون

والتقى التابعي بأسمهان، ومن الوهلة الأولى ومن طريقة كلامها ومن هيئتها وملابسها وعيونها الجبلية قرر التابعي أن يتزوجها. وكان التابعي غيوراً جداً..كان في غيرته مجنوناً يهدد ويتوعد بالفراق، وما أن ينهي شحنته حتى يقول أحلى كلام في الحب، وكانت هي في غيرتها غريبة إذا غارت اختفت يوماً أو اثنين عند أحد الأصدقاء أو الأقارب.

ومن غيرة التابعي اتباعه لطرق بوليسية؛ فقد دفع مبالغ كبيرة لكل الخادمات والوصيفات المحيطات بأسمهان حتى يعرف أخبارها ودفع ثمناً كبيراً..كان يدفع للبواب ليعرف متى تخرج؟! ويدفع للخادمة لتوافيه بأسرارها، ولكن أسمهان التي كانت تلعب الكوتشينة مع رجال المخابرات الإنجليز والفرنسيين كانت تعرف كيف تختار خدمها.. وكانوا يقولون لها ما الذي يقولونه للتابعي ولغيره!!

فقد كانت أسمهان امرأة ساحرة لها قدرة كبيرة على اجتذاب الرجال وهي كثيرة الهمس إذا تحدثت فيتوهم الذي يقول، ويرغي، ويلت ويعجن!! وكان ما تعمله أسمهان يجلب لها إعجاب المصريين من الرجال جداً فهي هوائية تحب في الصباح وتكره في المساء.. تنام عندما يستيقظ الناس وتخرج من بيتها في نصف الليل ولها مزاج غريب جداً، وقد رفضت دعوة ملكية من إحدى الأميرات لأنها طلبت منها أن تجانس الناس مقابل ٥٠٠ جنيها، ولم يكن معها في ذلك الوقت إلا ١٧,٥٠ قرشا، وكان هؤلاء الناس كبارات مصر والشام ولكنها اعتذرت لأنها كما يقولون "قادرة" أي على عكس النموذج المصري وقتها "المنطوية" وإن كان كل شيء تغير الآن وفي الوقت الذي كان

الناس يتحدثون عن غرامها بالتابعي إذا بها تهرب إلى غرام آخر وشخصية أكثر شهرة من التابعي. لقد اتصلت بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي. تركت حفلة بها التابعي وادعت أنها مصابة بصداع وستذهب لمنزلها واتجهت لمنزل أحمد حسنين باشا ومتى؟! الساعة الرابعة صباحاً، ورأى ذلك مصطفى أمين وحكاه لعلي أمين وقررا أن يبوظا هذه الجوازة فتقدما باستقالة من آخر ساعة إلى التابعي يقولون له إذا تزوج أسمهان سيتركان له مجلة آخر ساعة، وقال لهما طظ في آخر ساعة!! وطلبا المشورة من أم كلثوم لحماية التابعي وقالا لها ما رأيك تتزوجينه أنت؟! وضحكت!!

ووصل للتابعي الخبر بوثائق، ومات حبه بالسكتة القلبية، وسافر وحاول أن يتعلم التزحلق على الجليد وفشل ولكنه اشترى ملابس ومستلزمات التزحلق فلقد قرر أن يعرف كيف يتزحلق إذا أعطاه الحب صابونة ماركة أسمهان!! أما ما وصله من وثائق فقد كان يثبت أن هناك حواراً عنيفاً وقع بين الملكة نازلي أم الملك فاروق وأحمد حسنين بسبب علاقته بأسمهان ولأن التابعي هو صاحب عبارة: "أن انس المرأة بالمرأة" أو "اجعل حياتك منها كالكأس لا تراه ممتلئاً ولا تراه فارغاً" ومن هذه الفلسفة كتب عما عرف من النساء كتاب "بعض ما عرفت".

وقد سافر التابعي إلى أوروبا في صيف عام ١٩٣٩، وترك أسمهان في القاهرة، وكان يستمع لأخبارها من حين لآخر، وربما كان هذا البعد بينهما سببا لزواج أسمهان من أحمد بدرخان..

القصة الغرامية التي كانت حديث الوسط الصحفي والفني آنذاك

التي جمعت الدنجوان بأميرة القلوب أسمهان،كشفها التابعي في كتابه "أسمهان تروي قصتها" وقد كتبه بعد وفاتها في عام ١٩٦٠ وكان ينشره مقالات بآخر ساعة.. يقول التابعي عن أسمهان: كانت فيها أنوثة لكنها لم تكن جميلة بمقاييس الجمال. وجهها المستطيل وأنفها الذي كان مرهفا أكثر بقليل مما يجب وطويلا أكثر بقليل مما يجب. وفمها الذي كان أوسع بقليل مما يجب وذقنها الثائر أو البارز إلى الأمام أكثر بقليل مما يجب.. عيناها كانت كل شيء. في عينيها السر والسحر والعجب.. تعرف كيف تستعمل سحر عينيها عند اللزوم.

كان من أروع ما كتب في آخر ساعة مجموعة مقالات عن قصته مع أسمهان قال فيها: إنها أميرة يجري في دمها الدم الأزرق، وكان يحب أن يهزها بما لم تعتد عليه أن يضربها أن يمنعها من نزواتها، ولكنه كان يوافقها على ما ترضى عنه لأنه يحبها، ومن هذه العبارة كتب عنها مصطفى أمين في كتابه "شخصيات لا تنسى" امرأة كانت تتمنى رجلاً يضربها ولكنهم جميعاً لم تطاوعهم كفوفهم!!

وكانت أسمهان خدعته ضحكت عليه وجعلته يهمل عمله، فهو يتابع أخبارها ولا يتابع أخبار الوزارة، ويحرص على مقابلة المندوبين الذين يحملون أسرارها أكثر من حرصه على مقابلة مندوبي الجريدة والمحررين، ولكنه الحب، ولكنها امرأة مختلفة فهي من برج القوس!! ومما يقال عن أسمهان أنها تعاونت مع "هتلر" في أثناء وجودها بمصر، ولذا فالأصابع تشير إلى اتهام المخابرات البريطانية بقتلها في حادث

سقوط سيارتها في النيل وهي في طريقها لرأس البر، فقد ماتت وخرج السائق حياً وكانت تريد أن تذهب بالقطار وقال لها السائق كل التذاكر محجوزة وكان هذا غير صحيح وماتت غريقة في ترعة في ١٤ يوليو ١٩٤٤ قبل أن يكتمل آخر أفلامها مع يوسف وهبي فيلم "جنون الحب" ودخل نعشها فعلاً الأستوديو كجزء من الديكور!!

وفي هذا الوقت حزن التابعي وباع مجلة "آخر ساعة" لأخبار اليوم – صوريا– التي كان يمتلكها الأخوين أمين مقابل أن يكتب مقالين شهريا بـ ٣٠٠ جنيه.. باع المجلة التي عاش معها مجده منذ عام ١٩٣٤، ويقول عن هذا هيكل: ففي نوبة ملل ويأس وحزن زادت بأكثر من توقعات التابعي، قرر أن يرفع عن كاهله أعباء ملكية مجلته .

حزن التابعي حين توفيت أسمهان، وكتب: "السيدة الوحيدة التي أحببتها في حياتي، ومازلت أحبها، وسأبقى أحبها هي آمال الأطرش – أسمهان".

وقد صدر كتاب "أعلام الأدب والفن" لأدهم الجندي سنة ١٩٧١ تحدث فيه عن أسمهان وأوضح فيه أن علاقتها بأحمد حسنين باشا لم تكن حباً، بل غلباً، إنها أحد متطلبات التعامل مع الألمان "أن تحمل لهم أخبار السرايا" نفس الشيء الذي قيل عن كاميليا والملك فاروق، أما الشيء المبهر فهو تأكيده على أنها أحبت في حياتها التابعي فعلاً وبجنون ولا يزال التاريخ الخاص باسمهان فيه كثير من الحكايات.

الصحفي الصعِيدى قتلته منيرة المهدية ودفنته أم كلثوم

في أثناء ثورة ١٩١٩ أصدر القائد العام البريطاني أمراً عسكرياً بسجن كل من يذكر اسم زعيم الثورة سعد زغلول ستة أشهر مع الشغل وجلده عشرين جلدة، وهنا غنت منيرة المهدية أغنيتها المشهورة "يا بلح زغلول يا حليوة يا بلح، عليك بنادي في كل نادي، يا بلح يا حليوة يا بلح" وانتشرت الأغنية، وأصبحت على لسان النساء والرجال والباشوات والفلاحين حتى تحولت إلى ما يشبه النشيد الوطني تحدياً لأمر قائد جيوش الاحتلال! والمعنى أن المهم الرمز، وزغلول موجود.. سعد موجود وفي مذكرات كل من: عبد الخالق ثروت باشا، وإسماعيل صدقي باشا ما يفيد أنهما كانا يترددان على الفنانة منيرة المهدية!!

ثم إن منيرة المهدية لها أغان مشهورة "أسمر ملك روحي" و"عصفوري يا مة عصفوري" وهي قادرة على غناء أغان صعبة لسيد درويش وداود حسني، وهي أول من صرف على المسرح، وألف فرقة مسرحية مثلت على مسرح "بريتانيا" روايات:"كلها يومين" لحنها سيد درويش، و"كليوباترا" ولحنها سيد درويش وأكملها محمد عبد الوهاب!! وأصبحت منيرة المهدية المطربة الأولى في مصر بلا منازع، وفجأة جاءت أم كلثوم إلى القاهرة، وأحست منيرة المهدية أن العرش الغنائي يهتز تحتها وسمعت أن الجماهير جنت بغناء أم كلثوم فلم تصدق ما سمعت، وفي إحدى الليالي ارتدت ملاية لف سوداء، ووضعت على وجهها برقعاً، وارتدت شبشباً في

قدميها حتى تبدو كبنات البلد وصحبت معها الممثل محمد بهجت، وذهبت إلى مسرح رمسيس حيث كانت تغني أم كلثوم، واشترت منيرة تذكرة في أعلى التياترو، وهي أرخص مقعد في المسرح.

وجلست منيرة المهدية تسمع أم كلثوم والجمهور يهلل وشهدت سيطرة أم كلثوم العجيبة على المستمعين، وهي تتحكم فيهم بصوتها الخلاب وتجعلهم يرقصون في مقاعدهم، ويترنحون على نغماتها، ويهبون واقفين مصفقين لها هاتفين بحياتها.. ولم تحتمل منيرة المهدية أن تحضر أكثر من الوصلة الأولى من غناء أم كلثوم؛ فتركت المسرح غاضبة ساخطة على غباء الجمهور وجحوده وقلة ذوقه، عادت إلى عوامتها في النيل وهي تكاد تجن سخطاً وغضباً، وأخذت تفكر كيف تقضي على هذه الفتاة الصغيرة التي جرأت على تهديد عرشها، وأصبحت تهدد سلطانها؛ وهداها شيطانها إلى حيلة غريبة للقضاء على المنافسة الخطيرة.

فقد قال لها أولاد الحلال أن سر أم كلثوم في شلتها: مصطفى أمين وكامل الشناوي، إنه الإعلان والصحافة، وأنها كما شاهدت لا صوت ولا صورة، وإنما بربجندة خايبة، ولكن الغريب أنها صدقت هذا الكلام رغم أنها ذهبت ورأت وسمعت!! وسألت من معي من الصحفيين وقالوا لها سيطرت على الكل: يا ست الستات كل الصحفيين بتوع الليل والسهر، ولكن بتوع الجد ممكن ييجي منهم".. وأشار عليها بعضهم إلى اثنين: فكري أباظة وعبد المجيد حلمي، وسألت من أكثرهما استقامة وقلة خبرة وقلة شهرة وحاجة.. وتعجّب الجميع، ولكنهم قالوا لها: عبد المجيد

حلمي رئيس تحرير مجلة "المسرح" وقلمه عنيف وهو صعيدي وشاب لم يسبق له نزوات ولم يعرف عنه مغامرات في عالم العشق والهوى.

وقررت منيرة المهدية أن تقع في غرام الصحفي الشاب، ودعته إلى الغداء في عوامتها، وبعد ساعة واحدة كان يجلس تحت قدميها يبادلها عبارات الشوق، وهي تلقي البترول على قلبه المشتعل فتندلع النيران! وخرج عبد المجيد الطيب من عند منيرة وهو مقتنع بأنه حبها الأول والأخير، وأصبحت مجلة "المسرح" هي مجلة منيرة المهدية سلطانة الطرب في مصر والشرق! وبدأت مجلة المسرح تهاجم أم كلثوم وقالت في ١٧ يناير سنة ١٩٢٧، أم كلثوم لها مئات العشاق ولا أدري ماذا يحبون فيها فهي ليست على شيء من الجمال ولا خفة الروح ولا سلامة الطبع؟

وفي ٣١ يناير سنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح تقول "إن أم كلثوم نجمها قد غرب".

وفي ٣١ يناير أيضاً كتبت نفس المجلة تقول تقول: "أم كلثوم قدمت وهي بنت صغيرة شكوى لمحكمة السنبلاوين بأن شاباً من القرية اغتصبها"، ووعدت بنشر نص الحكم ولم تنشره أبداً لأنه كان خبراً مختلقاً، ولكن هذا الخبر كاد ينجح في إعادة أم كلثوم إلى قريتها فقد قرأه والدها الشيخ إبراهيم وأقسم ألا تبقى أم كلثوم بالقاهرة بعد أن بزغ نجمها، ولكن الأب أصر، لولا أن صديقاً للأسرة حضر في تلك اللحظة واستطاع أن يقنع الشيخ إبراهيم بالبقاء في القاهرة الملعونة

وفي يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٢٧ كتبت مجلة المسرح تقول "أم

كلثوم يلذ لها أن يتطاحن الأصدقاء ويهان الناس في سبيلها، وكانت مثالاً للزراية بعظمة الرجال والعبث بعقول الشبان والاستهتار بقلوب أولئك الذين أوقعهم سوء الحظ في حبالها، أليس فيهم من طلق امرأته من أجلها؟ أليس فيهم من أصبح هزأة للناس من أجلها؟ أليس فيهم من قاطع أهله وأصدقاءه من أجلها؟ أليس فيهم من أخذت ثروته في التلاشي من أجلها؟! وهي ماذا صنعت من أجلهم؛ حتى ولا شفقة ولا رحمة؛ أيها الرجال، اسمحوا لي أن أهزأ أنا بدوري منكم جميعاً، ليس في نفوسكم شمم ولا إباء، ليست فيكم نخوة ولا رجولة ليس لكم شرف ولا كرامة، إن أنتم إلا ألاعيب تحركها امرأة طائشة يلذ لها العبث المجرم والاستهتار الكامل، اختفوا من أمامنا إننا نحتقركم جميعاً؛ انقذوا أنفسكم أولاً ثم تعالوا إلينا، طهروا أيديكم وأنفاسكم ثم اختلطوا بنا، يا رجال الشهوات الميتة والنفوس التي لا تشعر ولا تحس، ما أنتم إلا عبيد امرأة بلا قلب".

ولكن هذه الحملة العنيفة القاسية على المعجبين والمتحمسين للمطربة الشابة أم كلثوم لم تصرف الناس، وفجأة جاء أولاد الحلال وقالوا: "لنغير ونعدل.. سنضرب أم كلثوم من المسرح"، وبسرعة أقنعت الست منيرة عبد الوهاب بإكماله لحن سيد درويش "كليوباترا"، ونجحت الفكرة مرحلياً عندما نشر الأستاذ فكري أباظة مقالاً في الأهرام بعنوان "معجزة الموسم" ويكتب عن ذلك الأستاذ "مصطفى أمين" في كتابه "شخصيات لا تُنسى"، رغم أن مصطفى أمين أحد من قال عنهم ولاد الحلال لمنيرة المهدية كلاماً كثيراً!! قال فيه: "منيرة وعبد الوهاب يغردان

تغريد البلابل والجمهور يضج ضجيج الإعجاب العنيف بعد أن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، واستولى عليه ذهول الخاشع أمام السحر الحلال مجرم في حق نفسه وحق الفن من لا يشهد رواية كليوباترا في الحال مجرم في حق النبوغ والعبقرية من لا يبادر بإذاعة خبر هذا النصر الحاسم، والنجاح البالغ عنان السماء!".

وأبدت منيرة إعجابها الشديد بفكري أباظة، وغار عبد المجيد من فكري أباظة وكتب مقالاً في مجلته يقول فيه: "وقامت الدنيا، وتحدث الناس عن هذا الإعلان الغريب، وقال يومها الناس كم تقاضى فكري أباظة ثمناً لهذه الكلمة؟ ولكن الناس لا يعرفون الحقيقة، انتهى الفصل الأول من رواية النجاح الباهر، ودخل مع الجمهور فكري أفندي أباظة وظل واقفاً ينظر إلى السيدة منيرة وهي تحيي هذا، وتبتسم لذاك، فهذا ينحني لها، وذلك يقبل يدها اليمنى! حتى انتهى الدور إلى فكري أباظة، ومرت به السيدة بكل عظمة، فانحنى حتى كاد يمس الأرض بجبهته، فقدمت إليه يدها فقبلها، لا كلمة ولا ابتسامة! هذا هو الثمن الذي تقاضاه فكري أباظة ليكتب تلك الكلمة".

واشتعلت نار الغيرة العمياء في قلب الصعيدي الشاب عبد المجيد، وفي يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٧ كتب يقول لمنافسه: "هي امرأة واحدة نحبها نحن الاثنان يا صديقي، أهو القدر يعبث بنا أم نحن نعبث بها، أم هي تلعب بنا جميعاً؟ قلت لي في مقابلتنا الأخيرة أنها باحت لك بغرامها، وأنها تحبك من دوني ولولا أنها تخشاني لنفرت مني

وأبعدتني عنها، ألم تذكر أنها قالت ذلك؟ وفر عليك جهدك فقد سمعت منها هذه الألفاظ عنك.. إذن هي تعبث بنا جميعاً، أحدنا تخشاه والآخر تجد مصلحتها في استرضائه، ومع ذلك فأنت تعبدها وتطمع فيها وتغار عليها، أما أنا فأحبها بلا عبارة ولا طمع ولا غيرة".

وفي ٧ مارس سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد حلمي إلى حبيبته يقول: "كان الشرط ألا نتراسل، مهما جد في غرامنا، ومهما وقع لنا، ولكني أحب أن أقص في غيبتي ما لا أستطيع ذكره أمامك، نذالة في الرجل يا سيدتي أن يغدر، ولكنها طهارة أيضاً ألا يكون مخادعاً ولا غشاشاً، وأنا اليوم أغدر بك، ولكني لا أغشك ولا أخدعك.. كنت أنت النار التي أشعلت جسمي، ولا أقول قلبي. ولكن هذا القلب كان يدق حين يشعر بالالتهاب. فظننت أنني أحبك، ظننت أنني لا أستطيع أن أعيش إلا لك أو من أجلك وفي سبيلك، وفي ذلك النهار الممطر الذي قضيناه معاً في منزلي، فجأة دفعتك عني كشيء قذر تمرغت فيه برهة ثم عافته نفسي فتنصلت منه أصبحت "لا شيء" في حين أنك منذ دقائق كنت "كل شيء" كنت أعتقد أنني أحبك وأنني لا أستطيع فراقك، كنت أغار عليك حين تمدين يدك بالسلام لمخلوق ما، وكنت أحترق حين أراك تبتسمين لشخص آخر.. كنت لا أطيق مجرد التصور أن رجلاً غيري نظر إليك وابتسم لك.. أما الآن فلا أتمنى على الله إلا أن يبعدني عنك إلى الأبد".

وقالت منيرة المهدية: "هذا الحشرة.. يتركني أنا.. يترك ست الستات.. لست المرأة التي يتركها رجل أنا الذي أترك".. وجن جنون برج الحمل برج

منيرة المهدية آه من برج الحمل.. وآه من امرأة يبدأ اسمها بحرف ميم إذا قررت الانتقام والثورة. وجاء أولاد الحلال وقالوا لها: "بشبشي له.. اسحري له"..وقالت: "إيه الكلام الفارغ ده" وقالوا لها وصفة معروفة بعض الآيات وبعض الطلاسم تكتب على ورق بالزعفران وتغسل بالماء ويشرب منها المحبوب!! أو شيء من (أطره) قطعة قماش منديل، وتعرف اسم أمه ونعمل له عمل.. وقالت الاثنان معاً.. ابن الـ... وابن الـ....

وفي ٢١ مارس سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد يقول "كنت لا أبصر امرأة يا صديقي إلا هزأت منها واستهترت بها، فأصبحت الآن لا أبصر امرأة إلا أحببتها وتمنيت أن تكون فريسة أعبث بها، وكما تسقط المرأة وتصبح تتاجر بنفسها وجسمها وتنتقم من الرجال جميعاً، لأن أحدهم كان علة شقائها وهاوية سقطتها، كذلك أريد أن أنتقم من النساء جميعاً، لأن إحداهن كانت سبب شقائي وعلة بلائي".

وفي ٢٨ مارس سنة ١٩٢٧ يكتب "وصلتني رسالتك منذ ساعات.. ورقة بيضاء فيها سطران وكلمتان.." افتح الدرج الأسفل في مكتبك، هناك وردة ذابلة أعدها إلي هذا كل ما تطلبين، حقاً لم يبق غير هذه بعد أن أخذت كل شيء، ألم تأخذي قلبي سالماً فترديه عليلاً؟ ألم تأخذي جسمي صحيحاً، لتعيديه سقيماً؟ أليست عواطفي وشعوري معلقة عليك في الحياة؟ إذن لم يبق شيء سوى الوردة الذابلة تستعيدينها؟.. هذه الوردة التي كانت كل سلوتي والتي أجمع فيها أحب تذكارات الهناء، وأقسى ذكريات الألم، ولكن سأعيدها إليك أيضاً.

وفي يوم ١٨ إبريل سنة ١٩٢٧ كتب إليها يقول "أصدقائي يصورونك لي بصورة بشعة، وما يزيدني ذلك إلا حباً فيك، وشغفاً بك وحنيناً إلى لقياك، إن حديث السوء عنك يصيب جرحاً في عاطفتي فيذيبها، المرأة التي أحبتها يحتقرها الناس!؟"

وفي يوم ١ مايو سنة ١٩٢٧ كتب عبد المجيد لها يقول: "أنت طاغية في حبك الأبله، طاغية في تفكيرك الجنوني، طاغية في عبثك الأثيم، طاغية في استهتارك السخيف، طاغية في إحساسك والشعور، ومصرع كل طاغية رهيب. فهل هذا بسبب الحب.. أم بسبب السحر؟.. أم بسببهما معاً؟!

وسقط عبد المجيد حلمي صريع الحمى والحب، وارتفعت درجة حرارته، وأصبح يهذي ويذكر اسم منيرة.. منيرة وحدها، وأفاق من غيبوبته ليكتب يوم ٦ يونيو ١٩٢٧: الآن وقد مضت علي الأيام الستة وأنا فريسة المرض، بدأت الخيالات تمر أمامي تباعاً، أعيد على ذكرياتي الماضي بعيدة وقريبة، فيشتد الألم وتزداد قواي انحلالاً، تآلفت علي عناصر الطبيعة تريد أن تصرعني وتألبت لتغلبني ووقفت لها أحتمل ولا أدفع، وأصبر فلا أجزع، حتى ثقل الحمل ودنا المصرع" واشتد الألم على عبد المجيد وذهب أصدقاؤه إلى منيرة المهدية يتوسلون إليها أن تذهب إليه ترد له الروح، فقد كان يطلبها وهو يهذي وكان يتوهم أنها إذا جاءت بقرب فراشه أعادت له الحياة، ولكن منيرة رفضت وقالت: إن عبد المجيد مريض بالسل وهي تخشى أن تصاب بالعدوى. وقد اغتاظ

محررو مجلة المسرح وأصدقاء عبد المجيد فنشروا لمنيرة المهدية صورة على غلاف المجلة في شكل قاتلة وفي يديها مسدس، وكتبوا تحتها "السيدة منيرة المهدية كما تريد أن تكون" وضاقت منيرة بحصار أصدقاء عبد المجيد ونقاد المسرح وشباب الصحافة فسافرت فجأة إلى سوريا، وأراد عبد المجيد أن يلحق بها ومنعه أطباؤه فاضطر أن يسافر لها، ووصل إلى سوريا مرهقاً متعباً وأدخل المستشفى وعاد أصدقاء عبد المجيد يتوسلون إلى منيرة أن تزور عبد المجيد في المستشفي فرفضت.

وازدادت العلة عليه فعاد إلى القاهرة في أوائل يوليو ١٩٢٧ ثم تضاعفت العلة وأصيب بضعف شديد وأصر أن يسافر إلى أسيوط موطنه الأصلي ليموت هناك، وفعلاً سافر إلى هناك وأسلم الروح ودفن هناك.

وكتب عنها مصطفى أمين في "أخبار اليوم" بتاريخ ١٩٨٦/١/١٨ تحت عنوان:"المطربة التي قتلت الصحفي.. والصحفي الذي دفن المطربة" يقول: وفي يوم ١٠ أكتوبر ١٩٢٧ كتبت مجلة الناقد: "الذي قتل عبد المجيد هو ظهور نكران الجميل والخيانة والغدر، هوجم عبد المجيد من الخلف وأرسلت له السيدة منيرة المهدية أختها لتذهب له وتقول إيه يا سي عبد المجيد.. أنت عيان بالسل.. مش تسافر؟ لحسن تعدينا.. دول الممثلين مش راضيين يشتغلوا..

وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٧ "كتبت الناقد" تقول: كانت منيرة المهدية تؤثر في عبد المجيد ببكائها وتطبع شعرها لكي يهاجم خصومها، واليوم وقد قضى المسكين فإن في السماء إلهاً يمهل ولا يهمل

وسيسألك: ماذا فعلت بعبد المجيد؟ احترمي الموتى يا شر مثال للخيانة والغدر!!". وفي يوم ١٧ أكتوبر ١٩٢٧ كتبت مجلة الناقد تقول أيضاً: "كانوا في القدس، وطلبت منيرة إلى عبد المجيد حلمي على لسان مراد عبد الرحمن خادمها أن يسافر لأن الفرقة لا تريده خوفاً من العدوى.. وأقسم له الممثلون أنهم لا يخشون منه شيئاً، ورأت منيرة ذلك فكلمت قنصل مصر في القدس لكي يأمر عبد المجيد حلمي، لم يعبأ عبد المجيد العنيد، وهو المشهور بصلابة رأيه، أرسلت منيرة إليه أن مكتب الصحة يطلبه وألا يعمل حجراً لفرقة منيرة يا للفظاعة والبشاعة ليس هو الطاعون ولا الوباء الأصفر، ولما ذهب عبد المجيد إلى مكتب الصحة أظهروا دهشتهم لذلك، وثاروا أنهم لم يطلبوه ولا داعي لذلك أبداً"

وهبت العواصف من كل مكان تقتلع منيرة المهدية من عرشها، البعض لعنها، والبعض هاجمها والصحفيون أهملوا أخبارها، والجمهور قاطعها ومضت منيرة تقاوم الصحف كلها والمجلات كلها والنقاد كلهم، كل أصدقائها تخلوا عنها حكموا عليها بغير محاكمة رفضوا أن يسمعوا شهودها أبوا أن يكون لها حق الدفاع عن نفسها! كان عبد المجيد معبوداً بين الشباب فقاطعوا مسرحها، وأطلقوا عليها اسم القاتلة وذهب بعض الناس إلى الشوارع ينتزع إعلاناتها الملونة أو يعمي عينيها الجميلتين المطلتين من إعلانات الحائط.

إن منيرة المهدية لم تقتل هذا الصحفي وحده، ولكنها تعودت على أن تقتل قلوباً كثيرة، فلقد أحبت وتزوجت من بطل المصارعة "حسن

كمال" ثم هجرته وطلقته لأنها تحب أخاه الأصغر وبعدها تزوجت هذا الأخ الأصغر إبراهيم كمال، وسقطت أم الأخوين ميتة بعد سماعها بهذا الزواج.. ولكن من يقاوم هذا الطول والعرض والشخصية والإغراء والعصبية. إنها مدت يدها ليسلم عليها رئيس مجلس الشيوخ حسين رشدي باشا ووجد الرجل نفسه يقبل يدها ليحدث أزمة برلمانية يقف فيها بسذاجة يقول "ليس في الدستور المصري مادة تمنع رئيس مجلس الشيوخ من أن يقبل يد مطربة". كانت منيرة المهدية تحب شيئاً واحداً، هو منيرة المهدية، أن أي واحد أحبها قال هذه العبارة "أنا وهي نحب شخصاً واحداً. هي!!" وإذا احتاجت لشيء لم تفصل بين الحب وما تحتاجه، وتفعل هذا قبل الحب تمسح وتكنس وتكوي وتهب كل شيء ولها صوت مؤثر وكلام مؤثر وخطاباتها قصيرة ولكن فيها مقاطع من أغانيها.. أو أغاني الآخرين ولكن فجأة تتوقف عن خدمتك، وتبدأ في كنسك من حياتها وكويك بغيرتها..

أما الصحفي عبد المجيد حلمي فهو صاحب هذه العبارة "قلبها من ذهب،جامد، لامع، بارد!!" ولكنها الوحيدة التي تصنع الحب بالكتابة بالزعفران والسحر على الورق الأبيض.. هل أحبت الصحفي أم كرهت أم كلثوم!! أما أم كلثوم فقد فعلتها معها بذكاء، وعلى عينك يا تاجر وبمنتهى البراعة والطيبة أرادت أن تنهيها للأبد، وبالعقل لا بالسحر. قررت أن تتركها تغني ليقارن الجمهور!!

وعن ذلك يحكي "مصطفى أمين":

وفجأة سألتها: وإيه حكاية عبد المجيد؟

قالت في استغراب: عبد المجيد مين؟

قلت: عبد المجيد حلمي بتاع مجلة المسرح.

قالت: آه.. آه.. عبد المجيد دي حكاية بسيطة، كان يحبني حباً جنونياً وكنت أعطف عليه لطيبته وبراءته ولكني لم أحبه لأن غيرته كانت كالإعصار تحطم كل شي أمامها!

ومضت الأيام وانقطعت منيرة المهدية عشرين سنة عن الغناء، وذات مساء اتصلت بي أم كلثوم تليفونياً وقالت لي: "إنني أدعوك معي في حفل ساهر اشتريت بنوار في صالة بديعة وستغني منيرة المهدية، وأنا أريد أن أشجعها وأصفق لها" وألحت إلحاحاً عجيباً أن أصاحبها، وذهبنا وغنت منيرة المهدية، ويا ليتها ما غنت،كان صوتها أشبه بالأسطوانة المشروخة فقد صوتها حلاوته وبحته ورخامته وجاذبيته، وكانت أقرب إلى ملكة محنطة في تابوت ترى فيها الماضي الخالد ولا تجد من أثر الحاضر سوى التراب، وكانت أم كلثوم تلهب يديها بالتصفيق وتزغدني في كتفي لأشاركها في التصفيق، وخيل إلي أننا وحدنا الذين كنا نصفق وأن الجالسين في الصالة انهمكوا في الحديث عن ذكريات سلطانة الطرب وبريقها الفتان، ظهرت التجاعيد تملأ وجهها بقسوة ووحشية، انطفأت روحها التي كانت تملأ المسرح حيوية! لم تكن منيرة المهدية! كانت شبح منيرة المهدية!

فعلتها أم كلثوم وأخذت بثأرها بعد أربعين سنة من واقعة أول مقالة كتبها الصحفي المسحور المتيم عبد المجيد ضد أم كلثوم وعشقاً لمنيرة المهدية!!

يمكننا البدء بالقول إن عبد الناصر كان من أكثر القادة والحكام العرب اهتماماً بالصحافة إلى حد الهوس، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا أكثرهم على الإطلاق. فهو قارئ نهم ليس لما يُكتب في صحافة بلاده فحسب، بل ويحرص على أن تُقدم له يومياً ملخصات وافية مترجمة لأهم تقارير ومقالات كبرى الصحف العالمية.

وغنيٌ عن القول إن هذه الخصلة بقدر ما هي جيدة في الحكام إذا ما انطلقت من الرغبة في التثقيف الذاتي وتوسيع معارف القائد، بقدر ما تتحوّل إلى نزعة مرضية تسلطية إذا ما كان الغاية منها ترصد النقد الصريح لسياساته أو أي سلبيات في قيادته وهذا هو بالضبط لُب المشكلة وأحد أهم الأخطاء القاتلة في التجربة الناصرية.

ويؤكد خالد محيي الدين في مذكراته «والآن أتكلم» هذا المعنى فيقول: «ظل عبد الناصر طوال حكمه حريصاً على أن يقرأ الطبعة الأولى من كل الصحف اليومية، ويراجعها بنفسه، ثم يصدر تعليمات فورية بأية ملاحظات يراها ليتم تعديل الطبعات التالية على أساسها.

ويضيف «وعندما توليت دار أخبار اليوم كان هناك موتوسيكل مخصص لإرسال أول خمس نسخ تصدر من الطبعة الأولى ليسرع بها إلى بيت عبد الناصر..

وهناك علامات استفهام على أوضاع الصحافة لم تكن مرضية لنا ولم تكن بعيدة عن عيون جمال عبد الناصر؛ فلم يتردد عبد الناصر في التعبير عن عدم الرضى عن الصحافة، منذ الساعات الأولى للثورة.

وجرت الثورة وراء أوهام وظنون ورؤية عبد الناصر، وسيطر الضباط الأحرار على الصحافة بالتأميم والتنظيم وبأنفسهم فقد عمل بالصحافة من الضباط عددا جاوز صوابع اليد الواحدة منهم: السادات، وخالد محيي الدين، وثروت عكاشة، ويوسف السباعي، وأشرف على الصحافة ضباط من الجيش بضعف هذا العدد؟! ورصدت ذلك روايات: (الرجل الذي فقد ظله) و(زينب والعرش).

ويعترف هيكل " منذ أول يوم في الثورة لم يكن جمال عبد الناصر راضيا عن الظروف المحيطة بملكية الصحافة في مصر كان يعتقد ان (آل زيدان) أصحاب دار الهلال و(آل تقلا) أصحاب الأهرام و(آل نمر) أصحاب المقطم قد أدوا دورهم في مرحلة معينة في تاريخ مصر. وكانت له تجربة مزعجة مع (آل أبو الفتح) أصحاب (المصري) كما أن علامة استفهام ظلت أمامه طوال الوقت على (آل أمين) أصحاب (أخبار اليوم) .. وأصبح واضحا بعد أحداث مارس ١٩٥٤ أن مجلس قيادة الثورة والعسكريين سيظلون بالحكم ولن يعودوا إلى ثكناتهم على الأقل حتى انتهاء فترة الانتقال والتي حددت بـ ٣ سنوات، وأن الاحكام العرفية ومن بينها الرقابة على الصحف ستظل قائمة بحد أدنى حتى يناير ١٩٥٦ وبدأت تشريعات جديدة تقيد الصحافة، ففي ٨ مايو ١٩٥٤

صدر مشروع للصحافة، وورد فيه: (تؤلف نقابة الصحفيين من المحررين وحدهم، الصحفيون الحاليون من غير أصحاب الصحف يتقدمون إلى لجنة الجدول لإعادة قيد أسمائهم وحرمان أي صحفي صدر ضده حكم جنائي أو حكم ماس بالشرف أو بكرامة المهنة".

ولم يكن جمال عبد الناصر في أي وقت من الأوقات يفصل بين المال وهوى صاحبه، وكان رأيه أن هوى كل صاحب مال يرتبط بمصالحه وغير ذلك غير جائز وإذا جاز فهو مؤقت تفرضه ضرورات، باختصار لم يكن جمال عبد الناصر راضيا عن الملكية العائلية للصحف..

وفي يونيو ١٩٥٦ أصدر مجلس الوزراء قانونا في هذا الاتجاه وفيه: (يجب على كل جريدة أو مجلة أن تخطر عن أصحاب رأس مالها ومموليها، تنشر كل جريدة أو مجلة ميزانيتها علانية على الناس كل سنة، كل جريدة أو مجلة تنشر قائمة بأسعار الاعلانات على صفحاتها وتلتزم بالأسعار المعلنة) وظلت هذه القضية تؤرق عبد الناصر وتشغله حتى عند وضع الدستور المؤقت سنة ١٩٥٦ ففي خطابه بهذه المناسبة مع احتفالات الجلاء قال ناصر (لا أحكام عرفية منذ اليوم، والدستور يكفل في مادته ٤٥ حرية الصحافة والنشر بلا رقابة ولصالح الشعب، ولكني أطلب باسمكم أن تستخدم حرية الصحافة في سبيل الوطن وسيادة الشعب ولتحقيق أهداف الثورة).

وبعدها مباشرة نشر وزير الإرشاد القومي محاذير ترد على حرية الصحافة منها: لا يجوز المساس بأي مسألة عسكرية أو تمس تحركات أو أسلحة الجيش، مع تكافل كل الجهات المختصة لوضع لائحة لتقاليد الصحافة.

ثم أصدر عبد الناصر أمرا في ١١ يونيو ١٩٥٦ بأن يحذف من قانون المطبوعات جميع المواد التي تحمي رئيس الدولة من النقد في الصحافة والكتب.

وعلقت الصحف، بأنه أصبح من حقها أن تنتقد رئيس الدولة دون أن يقدم صحفيوها إلى محكمة الجنايات. وحدث أن كتب "لطفي حسونة" مقالا "بأخبار اليوم" خاص بنظام الحكم فمنع المقال، وكتب "وحيد رأفت" مقالا "بالاهرام" عن (عبد الناصر يرجع أيام النحاس حين كان نقد الوفد للركب) فمنع أيضا؟! وأدلى وقتها صلاح سالم بحديث لمندوبي الصحف قال فيه (لا رقابة على الصحف، ولكن رؤساء التحرير عندنا لا يصدقون، فأرجو ملحا أن ترفع الصحافة الرقابة عن نفسها).

خلال تلك المرحلة كانت لا تزال الصحافة ملكا لأصحابها، حرة في تصرفاتها وتوجهاتها وبخاصة مع إلغاء الرقابة عام ١٩٥٦ ولذا اتجه النظام لإجرائين: الأول: خاص بإلغاء بعض الصحف والمجلات، بإثبات عدم انتظام صدورها وألغى بالفعل ٢٥ إصدارا صحفيا، ومنها: أخبار الأسبوع، البشير، أخبار النيل، القصة، اللواء الجديد، المسرح، قناة السويس، المقتطف، البعكوكة، اتحاد الشرق، النبراس، صوت الأحرار، مصر الفتاة، مسامرات..

أما الإجراء الثانى فهو :الاستمرار في سياسة إصدار الصحف الجديدة، سواء صحف الثورة: كالشعب والمساء، أو السماح بدور الصحف القائمة بإصدرات جديدة "حواء" عن دار الهلال و"صباح

الخير" عن روزاليوسف، ولم يستمر الوقت طويلا، بضع شهور وتقوم حرب السويس "العدوان الثلاثى" وتعلن الأحكام العرفية وتعود الرقابة أكثر صرامة، إنها الحرب، ولا صوت يعلو على صوت المعارك. ويصدر الحاكم العسكري أمره بتعطيل مجلات (لوريون دى جبتب- بنت النيل) لدرية شفيق، ومجلة السيدات المسلمات.. ويعزل عبد الناصر، صلاح سالم من رئاسة جريدة الشعب، حين كتب مقالة وقت العدوان طلب فيها من عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة تسليم أنفسهم للسفارة البريطانية إنقاذا للبلاد، معتبرا هذا استسلاما وخيانة..

كان عبد الناصر على موعد مع العدوان الثلاثي على مصر العام ١٩٥٦ الذي نجح بمهارته وذكائه في أن يحوله من هزيمة إلى نصر سياسي كاسح بعدها، فبدأ نجمه يسطع في سماء السياسة والمحافل الدولية. وهنا جاء دور هيكل الذي اتخذ من هذه المحطة فرصة للعمل على استثمارها أفضل استثمار في بلورة "الأسطورة"، هذا هو ناصر الجديد الذي نحته هيكل وبدأ في الترويج له في وسائل الإعلام المصرية والأجنبية، ثم بعد أن ترسخ في الأذهان أن عبد الناصر أصبح أسطورة العرب السياسية دخل هيكل مرحلة اللقب الجديد "الريس" وبدأ الترويج له في كل مناسبة بطريقة لا تخلو من الذكاء.

وفي ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ كتب هيكل مقالا بعنوان (حرية الرأي) عبر فيه عما كان يرفضه جمال عبد الناصر في الصحافة الخاصة، قال: "من أهم المسائل التي نواجهها اليوم مشكلة حرية الرأي، بل أنها أكبر

كثيرا من الحد المفهوم من وصف (المشكلة) ذلك أنه في هذه المرحلة من تاريخ تطورنا السياسي والاجتماعي والفكري لا بد أن يبرز الرأي الحر ليكون المقدمة الحقيقية للركب وهو يسير والدليل الأمين للقافلة، وهي تسعى نحو المستقبل ولكن الرأي الحر في بلادنا لا يمارس الآن هذا الدور الخطير لعدة أسباب:

أسباب عامة تتصل بظروف الحياة وأسباب خاصة متصلة بأدوات التعبير عن الرأي ووسائله.. من الأسباب العامة مثلا: أنه في ظروف الحياة السريعة التي نعيشها الآن طغى الخبر على الرأي، وغطت الحادثة على الفكرة. ومن الأسباب الخاصة المتصلة بأدوات التعبير أن الصحافة وهي أول هذه الأدوات تعيش تحت رقابة قاسية، والمحنة الحقيقية أن هذه الرقابة ليست فرضا على الصحافة من الخارج، وإنما هي قيد من الداخل والأسباب كثيرة، أولها ان صحافتنا في كثير من الأحيان لم تستطع أن تتحول بعد عن كونها صحافة شخصية، ومن هنا فإن تعبيرها عن (الرأي الخاص) لأصحابها ومحرريها أشد ظهورا من تعبيرها عن (الرأي العام) لمجتمع بأكمله على اختلاف طبقاته. ثانيهما أن صحافتنا حين أعوزها إيمانها الأصيل بغايات محددة ووسائل إلى هذه الغايات تركت رسالة التوجيه واقتصرت على (المسايرة) و(مسايرة) الحوادث على علاتها و(مسايرة) التطورات كما تجيء.. وهذه حقيقة فرضتها الصحافة على نفسها ما لم يفرضه عليها غيرها أخذا بالأحوط والأسهل وإيثاراً للعافية والسلامة، وثمة من يتصورون أن هناك رقابة من الدولة على

الصحف تقيد أيديها وتعجز أقلامها.. وليست تلك هي الحقيقة لحسن الحظ، وما من شك في أن هناك قيودا على نشر التحركات العسكرية مثلا. وعلى بعض المسائل المتصلة بأمن الدولة الخارجي، ولكنه فيما عدا ذلك ليس هناك من يفرض علينا السكوت. إننا نحن الصحافة سكتنا حين زحمتنا الحوادث فلم نجد لنا في وسطها رأيا، وحين بقينا على هامش التطورات نسايرها ولا نغوص في أعماقها بحثا عن الإيمان نجاهر به ونقاتل دفاعا عنه، على أنه ينبغي أن يكون هناك مفهوم لحرية الرأي.. إن حرية الرأي ليست العناوين الثائرة الغاضبة على شخص بعينه وليست الحملات المنطلقة في ضراوة ووحشية تبحث عن كبش فداء. إن حرية الرأي هي حرية المناقشة. إن الفكرة المتحررة داخل العقل مقدمة، وانطلاق هذا الفكر حديثا ناطقا على اللسان أو حديثا صامتا على الورق نتيجة، وبغير المقدمات لا يمكن الوصول إلى النتائج، وبغير النتائج لا تصبح للمقدمات فائدة.. هذا هو فهمنا لحرية الرأي"..

لكن هيكل لم يتصور أن ذلك سيؤدي بعد أقل من سنتين (بالتحديد بعد سنة وخمسة أشهر و٢٦ يوما) إلى تأميم الصحافة أكثر الشرين صعوبة وأصعبهما قسوة (الملكية الخاصة والملكية العامة) وواضح أن هيكل جنح في الخلاف بين الصحافة والثورة، ناحية الثورة فالصحافة لم تمارس رقابة على نفسها من الداخل تهربا من الحرية أو استجابة لسرعة العصر التي جارت على الرأي لصالح الخبر وجارت على الفكرة لصالح الحادثة، ولكنها خشيت من الضربات المتلاحقة التي تعرضت لها بعد الثورة، وهو ما فرض

مناخا بوليسيا داخل مكاتب الصحف والمجلات، لم تعد فيه الموهبة هي الأساس وإنما العلاقات بمصادر القوة ومنابع السلطة وجعل الأقلام تسابق للتأييد ولما هو أكثر من التأييد.

كذلك فإن هيكل يحاول فرض مفهوم ضيق لحرية الرأي يحصر هذه الحرية في المناقشة ولا يمتد إلى ما يرفضه من الحملات الصحافية على شخص أو تصرف، لكن ذلك كله لا يمنع الاعتراف بأن هيكل فوجئ بقرار تنظيم الصحافة، ثم أنه صدم فيه، وحاول التخفيف منه لكنه في النهاية لم يقدر على مواجهة الشلال المندفع بقوة من أعلى).

ولم يكن هيكل من جانبه يرضى عن أوضاع الصحافة، لكنه في الوقت نفسه كان يرى أن تأميم الصحافة وتحويل ملكيتها من العائلات إلى الدولة كارثة الكوارث، على أنه كما يقول (لم يكن هناك حل وسط).

اللقاء الصعب في كتابه (الصحافة والسياسة) الذي نشره بعد تنظيم الصحافة بربع قرن من الزمن يقول أن جمال عبد الناصر دعاه إلى ما وصفه هيكل (بواحدة من أصعب مقابلاتنا) وقال جمال عبد الناصر له: (أنه مهما كانت آراؤك في الصحافة فقد وصلت الآن إلى اقتناع كامل بأنني لا أستطيع أن أترك الأمور كما هي) واستطرد مؤكدا أنه لا يريد أن يتخلص من أحد لأنه لو أراد فإن لديه السلطة والشجاعة لينفذ، وأضاف: (إننا مقبلون على تحولات اجتماعية كبيرة، وقد بدأت هذه التحولات بتأميم البنك الأهلي، وبنك مصر (صدر قرار تأميمهما في ١١ فبراير ١٩٦٠) وإذا كنا نريد إجراء خطة للتنمية فلا بديل عن سيطرة المجتمع على وسائل المال

والإنتاج، ولا أستطيع عقلا ولا عدلا أن أفرض سيطرة المجتمع على الاقتصاد ثم أترك لمجموعة من الأفراد أن يسيطروا على الإعلام.. إنهم لا يسيطرون الآن عمليا لأن الثورة قوية وذلك مجرد خوف،وأنا لا أثق في خائف خصوصا إذا تغيرت الظروف، المرحلة الجديدة من التحول تحتاج إلى تعبئة اجتماعية شاملة، وأعرف أن الموجودين الآن سوف يصفقون لأي قرار لكن المطلوب شيء آخر غير التصفيق).

وكانت مخاوف هيكل على المهنة . كما قال . واضحة، لكن كان اقتراح جمال عبد الناصر له: (فكر في أية ضمانات تريدها للمهنة ولنلتق هنا غدا في الساعة الحادية عشرة صباحا، وسوف يكون معنا محمد فهمي السيد المستشار القانوني للرئاسة) ويستطرد هيكل: (وفي اليوم التالي حاولت بكل ما أستطيع، وربحت بعض النقط وخسرت بعضها الآخر، ربحت فيما أظن عندما استبعدت منطق التأميم بحدوده القاطعة، ووصلنا إلى صيغة تسمح بمرونة، وهكذا كان (تنظيم الصحافة) وليس (تأميمها) وحاولت أن أجعل الملكية مشتركة بين التنظيم السياسي وبين جمعية العاملين في كل دار صحافية ٥٠% لكل فريق، ولم يقبل جمال عبد الناصر وخرج باقتراح وسط، انتقال الملكية إلى التنظيم السياسي (الاتحاد القومي في ذلك الوقت ثم الاتحاد الاشتراكي فيما بعد) وليس إلى الدولة واحتفاظ كل صحيفة بأرباحها داخلها ثم توزيع هذه الأرباح مناصفة، نصف للتجديد والإحلال في دور الصحف، ونصف لجمعية العاملين في كل دار صحافية، واعترضت على المذكرة التفصيلية للقانون؛ فقد أحسست أن المنطق والمبررات الواردة

فيها يمكن أن تحتمل ما يمكن اعتباره نقدا لما كانت عليه الأحوال في المهنة، الأمر الذي استوجب إعادة ترتيب هذه الأحوال بالقانون، وأشهد أن جمال عبد الناصر كان صبورا، فقد قال لي: (دعك من مذكرة فهمي واكتب أنت واحدة غيرها)، وكتبت مذكرة كانت في الواقع إعلانا بتأكيد حرية الصحافة أكثر منها مذكرة تفسيرية للقانون).

وفي شهادة لحلمي سلام الذي كان رئيسا لتحرير لمجلة الإذاعة «١٩٥٦-١٩٦٢» أن الثورة كانت تصدر مجلة «بناء الوطن» وكان رئيس تحريرها «أمين شاكر» مدير مكتب جمال عبد الناصر، وكانت تطبع في دار الهلال وتراكمت عليها ديون الطبع حتى وصلت إلى عشرة آلاف جنيه، وفجأة أصدر أميل زيدان أحد أصحاب «دار الهلال» بعدم طباعتها إلا بعد تسديد الديون، وطبق هذا على العدد الجديد، ونقل «شاكر» هذا الأمر إلى «عبد الناصر» فاعتبر أن هذا تحدٍّ للنظام والثورة، غير أن سلام يقول: «بما أن المجتمع وقتها كان يتحول نحو الاشتراكية، فكان من الطبيعي أن تصبح الصحافة تحت يد الدول ...

أما إحسان عبد القدوس فيقول: «في إبريل ١٩٥٨ ماتت أمي، وتصدعت كل أحلامي، وأحسست تماما بأنني منهار، وبدأت أفكر في تأميم الصحافة كعملية إنقاذ لدار روزاليوسف، وخصوصًا أن هذا الحل كان لا يمكن تنفيذه في حياة أمي..كان لا يمكن أن تترك المجلة أبدًا للحكومة، فقد كانت هي أسرتها وهي منزلها، وكنت كلما كتبت قصة أبيعها للحكومة وأضم ثمنها في روزاليوسف، ثم أسست شركة بيني وبين

أختي وزوجها كي نبني دارا للطباعة، وكل هذا ولا فائدة، وكتبت مقالا قلت فيه: لماذا لا تؤمم الصحافة ؟.. وقد أممنا كل شيء تقريبًا، ولجأت إلى هذا بعد أن أرهقتني ديون المجلة والرقابة أيضًا"، يضيف إحسان «قلت أيضًا في المقال: إن الصحافة حين تؤمم تصبح تابعة للحزب الحاكم وهو الاتحاد الاشتراكي، ويؤكد: «قرأ عبد الناصر المقال في إبريل ١٩٦٠، وأخذ منه أربعة سطور بالنص، وأصدر بها قانون تنظيم الصحافة واتصل بي عبد القادر حاتم، وكان على علاقة صداقة بي، وقال: الرئيس أخذ من مقالك وأمم الصحافة، وأنت هتكون رئيس إدارة روزاليوسف، وكنت رئيس مجلس الإدارة الوحيد الذي عين من أصحاب الصحف التي دخلت في قرار التأميم، وأنا أعتبر أن روزاليوسف استفادت من تأميم الصحافة في مصر، ولولا التأميم كانت أفلست..

وفي ٢٤ مايو ١٩٦٠ أصدر الرئيس جمال عبد الناصر قانون تأميم الصحافة رقم ١٥٦ لسنة ١٩٦٠ وانتقلت ملكية الصحف إلى الحكومة المصرية، وأصبحت هي التي تعين رؤساء التحرير وهي التي تقيلهم من خلال النص على تبعية الصحافة للاتحاد القومي. واشترط القانون سواء لإصدار الصحف أو للعمل بالصحافة الحصول على ترخيص من الاتحاد القومي، وقرر القانون أيلولة ملكية الصحف وجميع ممتلكاتها للاتحاد القومي، وينقل إليه ما لأصحابها وفقا لأحكام القانون.

ويقول هيكل: (وصباح اليوم الذي أذيعت فيه نصوص القانون، دعوت أسرة تحرير (الأهرام) إلى اجتماع عام كي أتشاور معهم في

الأوضاع الجديدة، وشرحت لهم في البداية موقفي. قلت: إنني (لم أكن متحمسا للقانون من ناحية المبدأ) وفوجئت بالزميلة الراحلة جاكلين خوري. تقاطعني قائلة: (هل نستطيع أن نسألك: لماذا؟.. أليس الوضع في ظل القانون الجديد أحسن مئة مرة للمهنة وللصحافيين من الملكية الخاصة للصحف؟. وبدا لي أن تيارا قويا يؤيدها.. ودهشت؟!

واجتمع عبد الناصر بالصحفيين وقيادات الصحف بعد إعلان التأميم في ٢٨ مايو وقال لهم: "لم يقصد بالقرار صحفا بعينها، وليس هدفنا أن نغتصب مبان من خمسة أو أحد عشر طابقا، لكن لأننا لا بد أن نبني مجتمعا اشتراكيا متحررا من الاستغلال، وأن المجتمع الذي نود بناءه ليس مجتمع القاهرة، ولا مجتمع النادي الأهلي ولا نادي الزمالك ولا الجزيرة ولا سهرات الليل.. مش هي دي بلدنا، بلدنا مش كفر البطيخ، بلدنا مهياش أبدا فلانة اتجوزت، وفلانة اتطلقت، ومصر ليست المطلقات في نادي الجزيرة.. مصر هي كفر البطيخ!". ووجه عبد الناصر كلامه بحدة إلى الصحفيين قائلا: "أنتم كصحافة مجندون لخدمة البلد مش لخدمة ناس أبدا، واللي مش مؤمن بالمجتمع الاشتراكي التعاوني يقدر يقول أنا غير مؤمن، ويروح يقعد في بيته. وأضاف بأنه لا يقبل أبدا أن تباع الصحف بأخبار الدعارة،كما هاجم مجلة صباح الخير لنشرها رسوما كاريكاتيرية جنسية للرسام حجازي، كما هاجم النكت والتعليقات الساخرة التي يظهر فيها الزوج مخدوعا، والزوجة تخبئ رجلا في الدولاب".

وظهرت الأغلبية من الكتاب والصحفيين مؤيدين ومرحبيين، حتى

أن أصحاب الصحف أنفسهم ومؤسسيها هم من أعلنوا فرحتهم بالقانون الذي اعتبروه خطوة لتنظيم الصحافة؟! وعند نشر قانون الصحافة لم يكن إحسان بمصر فتحدث لزوجته تليفونيا من الخارج ليقول لها: "مبروك تنظيم الصحافة!!" ويرى موسى صبري أن هذا نفاق ممقوت، ويقول بكل أسف وقع فيه كبار الصحفيين، فمحمد التابعي رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم سلم مكتبه ليجلس عليه أمين شاكر "أحد الضباط الأحرار" ويعرب عن أن هذا بمقال أنه شرف عظيم!!

وكتب هيكل عدة مقالات عن القانون الجديد، ولا يمكن أن ننكر أن وجهة النظر التي روَّج لها هيكل هي وجهة نظر مناسبة لمجتمع يتحول للاشتراكية، وحيث تكون أدوات الإنتاج وأدوات التأثير والتغيير والتعبير في يد قوة واحدة، وحيث تكون وسائل التعبير مرآة عاكسة لهذه القوة.

ولكن ما جرى فيما بعد وضع قانون تأميم الصحافة في مأزق.. لقد ذهبت الاشتراكية واقتصاديات الدولة المركزية إلى غير رجعة، وعاد القطاع الخاص ليسترد مواقعه الاقتصادية، وفي الوقت نفسه ظلت السلطة محتفظة بأدوات التأثير والتغيير والتعبير في يدها، وهو صورة صارخة من عدم التجانس، أن تكون حرية في السوق ومركزية في الإعلام، أن يحدث إصلاح اقتصادي وموات سياسي. ورغم ذلك فإنني لم أستسغ وصف هيكل للصحافة وباقي وسائل الإعلام بوسائل التوجيه، فالتوجيه يعني فرض رأي واحد أو وجهة نظر واحدة، وهو ما يتنافى مع حرية الصحافة التي لا تكون إلا بالتنوع والاختلاف وتعدد الآراء.

وقد خيبت التجربة العملية كل التوقعات المتفائلة، فالتنظيم السياسي الاتحاد القومي، الذي كان مالكا معنويا للصحافة اختفى بين يوم وليلة بقرار من السلطة التنفيذية التي أخرجت على أنقاضه تنظيماً سياسياً جديداً هو الاتحاد الاشتراكي العربي، كذلك فإن الصحافة أصبحت خاضعة للسلطة السياسية، تنقل وترفت وتعين ما تشاء دون أن تعود للمالك المعنوي..أصبحت الصحافة أداة في يد الرئيس وتابعة له مباشرة، وكأنها أضيفت إليه مع باقي السلطات والصلاحيات، ولو كان هناك مبررات صاغها الحلم الناصري وراء ذلك فإن ما جرى فيما بعد أجهض الصحافة وتركها كائنا مشوها، ولا يزال.

وهو ما يجعلنا نسخر من عبارة (السلطة الرابعة) التي تطلق عادة على الصحافة بل إننا بصريح العبارة نصرخ: "إن الصحافة لا يمكن أن تكون سلطة رابعة لأن الفقه الدستوري في الدنيا لا يعرف غير سلطات ثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية، إن السلطات لا تخترع من الهواء وإنما هي وليدة تطورات تاريخية واجتماعية وسياسية مشهودة ومؤكدة.كيف يمكن أن تكون الصحافة سلطة رابعة إذا كانت مملوكة لجهاز تعينه السلطة التنفيذية، كيف يمكن أن تكون الصحافة سلطة رابعة في أي بلد من بلدان العالم الثالث كله وهذه البلدان، باستثناءات قليلة، لا تعرف غير سلطة فعلية واحدة. سلطة أولى واحدة وإذا كان موضع شك أن تكون هناك. بعد السلطة الواحدة الأولى. سلطة ثانية وثالثة فكيف يكون هناك مجال لسلطة رابعة؟".

وفي ١٩٩٤ تصادف أن عملت مع الدكتورة لوتس عبد الكريم في مجلتها الجميلة "شموع"، وكانت وقتها مهتمة بعمل إعداد خاصة لعباقرة الفن والأدب في مصر، تقول عليهم أصحابي وعشرتي وأيامي، وهي سيدة لها ذكريات، وذاكرة، وعندها حكايات لا تنتِهي، تحدثك عن عبد الوهاب وكأنه ابن الجيران، وعن إحسان عبد القدوس وكأنها أخته، فقد دخلت بيته وجلست لزوجته وصادقت سكرتيرته، أما عن يوسف السباعي ومصطفى محمود فهي تعرف عنهم ما لا يعرفه أحد؟!

أما عن علاقتها مع "الملكة فريدة" ملكة مصر، فحدث ولا حرج. تعرفها وتعرف عيالها وعيال عيالها وتقول لك (كلام في سرك.. الملك فاروق رجع لها في نهاية حياته وتزوجا من جديد).

وقالت لي ما رأيك أن يكون عدد الشهر عن مصطفى أمين؟ ووافقت سعيدا، فعلى ذاكرتي قصة "مصطفى أمين، واتهامه بالعمالة والتجسس لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية في القضية الشهيرة عام ١٩٦٥" وتساءلت بيني وبين نفسي: هل مصطفى أمين فعلاً جاسوس أم هي اتهامات اتهمه بها النظام كما يفعل النظام مع المعارضة في كل زمان ومكان الغريب أنه كان على حجر الثورة وليس في المعارضة، ووقف مؤيدا للثورة ولعبد الناصر بمجرد قيامها، ثم اتهم بالخيانة العظمى؟! وكان قراري أن يكون هذا مدخلي لمصطفى بك كما تحب د. لوتس أن تطلق

عليه وقد سألتها عنه فقالت كلاما مقتضبا يشبه الكلمات المتقطعة مثل: كان وحشا، لا يشطب كلمة ولا يرفع قلما حتى ينهي مقاله في نفس واحد، لا يعرف أحد ما بداخله؟ ولم تسترسل كما تفعل؟! وتوالت علينا المقالات والبحوث لعدد مصطفى أمين فحباب مصطفى بك عشرة.. كما يقول السودانيون، وتعدى الأمر حمل عددا واحدا؟!

وقالت د. لوتس: (وماله عدد كمان لمصطفى بك، وسمينا العدد الثانى (مصطفى أمين..كمان وكمان) منتحلين الفكرة من فيلم "القاهرة..كمان وكمان" ليوسف شاهين.. وفي العدد الثاني أرسل أنيس منصور مقالا عنوانه "مصطفى أمين من البرش إلى العرش" ووجدت د. لوتس تحدثه في التليفون، وبصوت مرتفع بعشم وتشكره على المقال، وكتبت ورقة لها فيها (عاوز أحاوره عن مصطفى أمين) وأنهت تليفونها وقالت بكرة تروح له، وأضافت كعادتها الحلوة من الشعر بيت، قالت أنيس ده كاتب موسوعي وصديق ولما كانت الملكة فريدة مصحباني ورايحة جاية عليا كان (أنيس بييجي هنا، وكان عاوز يكتب قصة حياتها) وبقى بينهما عشم!؟

وفي الميعاد..كنت بمكتب أنيس منصور، ودخلت له من الأدب، قلت: تقول زبيدة عطا زوجة الكاتب فتحي غانم «في كل رواياته دائمًا ما كانت تتناثر الأقاويل بأن كلماته تقصد شخصًا معينًا، فمثلًا في روايته (زينب والعرش) قال الأستاذ الكبير مصطفى أمين بنفسه إنه المقصود بشخصية (عبد الهادي النجار) وتلك واقعة تكررت من مصطفى أمين في أكثر من

مناسبة، فقد درب مصطفى بك: فتحي غانم، وأحمد بهاء الدين معا على الصحافة عام ١٩٥٤ حين ترك الاثنان النيابة فمصطفى أمين استدعى الصحفي الجديد فتحي غانم إلى مكتبه الرئاسي ليعهد إليه بكوم من المجلات النسائية الأجنبية قائلا: "هه.. دور لي فيها على مادة تصلح بعد تمصيرها لآخر ساعة، عايزك تفكر في أبواب جديدة: أزياء، تجميل، طب، ومشكلات صحية نسائية، وترجم لي من الفرنسية والإنجليزية قصصا قصيرة ورد لي علي رسائل القراء، ويتأفف فتحي غانم فيقول له مصطفى بك: "سوف تتعود.. سوف تتخلص بسرعة من كل ارتباك. فهنا أسرع مكان لتغيير طبائع البشر"، تماما كما قال عبد الهادي النجار، بطل رواية (زينب والعرش) ليوسف المحرر الجديد: "سوف تتعود، سوف تتخلص بسرعة من كل ارتباك.. فهنا أسرع مكان لتغيير طبائع البشر".

قال أنيس منصور: تسأل عن أدب مصطفى أمين أم عن تورط مصطفى بك مع عبد الناصر؟

قلت: الاثنان وأكثر.

قال: كان في رواياته وقصصه يدخل الحقيقى في الخيال، فله رواية هي (الآنسة كاف) فيها أحمد حسنين (باشا) والأميرة شويكار (هانم) بالاسم والجسم بطلان لها، وكتب رواية (صاحب الجلالة الحب) طبق الأصل حكاية (المشير عامر مع برلنتي) فهو تصور عمارة فخمة جديدة في كل دور فيها قصة من قصص نكسات ثورة يوليو، يعني سبق الأسواني وعمارة يعقوبيان. أما روايته (سنة أولى حب) فتعيش العصر الملكي وثوار

ثورة ١٩١٩، وفيها بالاسم مناضلين من جماعة اليد السوداء للوفد، رواية لا هي ضد مظالم عبد الناصر وهو بطلها وتحكي مأسأته، فالعقل الباطن عند الأستاذ مصطفى أمين عنده اتصال ما بالعقل الواعي، ولذا هو يخلط بين الخيال والحقيقة في أدبه، وهو على فكرة اتجاه اصبح له رواده عالميا. وعليك أن تعرف أنه في حياته كانت رواياته تفوز بالسبق، يكتبها فصولا مسلسلة بصحف القاهرة وبيروت، ويطبعها في كتاب.

وانطلقت بما أقصد: "هل كان فتحي غانم قاسيا في روايته "زينب والعرش" على عبد الهادي النجار لتعاونه مع الشيطان؟!"

فهم ما أقصد الأستاذ أنيس وقال: "الصحفيون من أبرز المستهدفين للتجنيد كعملاء من قبل أجهزة المخابرات العالمية، بسبب الحرية التي يتمتع بها الصحفي في عمله ميدانيا، ولأنهم يجلسون على كومة من المعلومات فتفترض الأجهزة الاستخبارية أن لدى الصحفي قدرة على الوصول للمعلومات التي تحتاجها دون أن يكون هناك أي ملاحقة قانونية أو شك من قبل الأطراف المتجسس عليها. والأمثلة كثيرة (ألبير لوندر) وهو الأب الروحي للريبورتاج والتحقيق الصحفي، تطوع بنفسه ليتجسس ضد الاتحاد السوفييتي، وقال إن الوطنية هي ما دفعته للتجسس (كيم فيلبي) يعتبر الصحافي كيم فيلبي واسمه الحقيقي هارولد أدريان.. راسل فيلبي من أشهر الجواسيس الذين كانوا عملاء مزدوجين (باتريك دينو) هذا الصحفي الفرنسي كان مراسلًا حربيا لقناتي "تي. أف ١" الفرنسية و"سي.بي. إس" الأمريكية في حروب أفغانستان، إيران والعراق، وليبيا والتشاد ولبنان وأمريكا

الجنوبية. وكان مدفوعًا هو الآخر بالوطنية. وأنا أعتقد بأن مصطفى أمين كان مكلفا من جمال عبد الناصر بالاتصال بأمريكا، وعندما ساءت العلاقات بين مصطفى أمين، وعبد الناصر اتهمه بالتجسس وصدر عليه الحكم بالسجن ٩ سنوات، وقد ذهبت لمبنى المخابرات سنة ١٩٨٨ ووجدت قضية مصطفى أمين في متحف المخابرات واطلعت على الـ ٦٠ ورقة الاعترافات بخط يده ولا أعرف ما الذي جعله يكتب كل هذا الاعتراف الطويل؟! هل أجبر؟ هل عذب؟! لا أدري ولكني لاحظت أنه كل ٢٠ صفحة يسجل هذه الجملة "وكان ذلك بعلم سيادتكم وأوامركم".

وهو ما عبر عنه هيكل في كتابه "بين السياسة والصحافة" بعبارة (لكن هذه القضية المعقدة لها وجه آخر لا تستقيم الأمور بغير التعرض له – ذلك أن الأستاذ مصطفى أمين ينسب ما يقوله لجمال عبد الناصر ويظهر أن له صلة به) وقد كان يمكن أن يحصل لي ولغيري نفس الشيء، فالرئيس السادات كان يرسلني لإسرائيل بأوراق وأحيانا رسائل شفوية ويحدد لي بمن أتصل هناك – وأقول حاضر يا ريس فلا غيرها يمكن لأحد يقول وأذهب ولا علم عند الخارجية ولا الداخلية؟! ولا كان كلام الريس لي موثقا ولا عليه شهود.

وطرح سؤالا: تخيل لو قال السادات مقلتلوش هو راح واتصل من رأسه؟! تبقى خيانة عظمى كلابوش!! وضحك وضحكت وقال (وعلى العموم السادات عبر بمصطفى أمين من البرش للعرش، وخرج به من السجن للصحافة.

ووردت لنا مقالة عن (مصطفى أمين الدون جوان) وكيف عذب زوجته الأولى، وتزوج الثانية "قريبته" وهو بالسجن ليضمن طعاما بيتيا ساخنا؟! ولكنه دلع شادية وتزوجها عرفيا ووجدوا العقد في فيلته بالإسكندرية وقت القبض عليه، وتزوج أم كلثوم عرفيا، وسجل ذلك رجاء النقاش في كتاب له، وهناك إشاعة عن علاقة له بنجوى فؤاد، ويذكر المقال اسم سكرتيرة له صعدها لعالم الصحافة فسبقت الصحفيات؟!

وقالت لي د.لوتس: عليك أن تعي فلسفة العدد الخاص فهو يعني أننا نقدر ونحترم ونحب صاحبها، مش نتجسس عليك، ومزقت المقال وهي تقول جريدة الشموع لا تدخل غرفة نوم أحد؟!

وكان هذا هو ما نشرته في الشموع عن "مصطفى أمين" ولكن الرجل هو أسطورة صحفية مصرية، في الملكية والجمهورية، مع الملك وعبد الناصر والسادات، وعشت معه مرة أخرى شهورا فقد طلبت مني د.لوتس جمع مادة علمية لكتاب لها عن مصطفى أمين وسارعت أقول أرجوكي.

ينتمي الأستاذ مصطفى أمين إلى عصر البناة العظام في تاريخ الصحافة المصريّة، هو ومحمد التابعي وكامل الشناوي ومحمد حسنين هيكل وعلي أمين وإحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين، وغيرهم من الجهابذة، ولكن إلا مصطفى أمين الذي تربى في حجر سعد زغلول، وتعود على الاتصال بالحكام من صغره قبل الثورة وبعدها فهو بحاشية أحمد حسنين (باشا) بالقصر، وهو له شنة ورنة عند السعديين، وأحزاب الأقلية، وكان أصغر رئيس تحرير في تاريخ الصحافة بتوليه رئاسة تحرير مجلة "الاثنين" وقد أنعم عليه

الملك برتبة "البكوية" قبل بلوغه الثلاثين، تعلم في أمريكا وكان يجيد الإنجليزية، والفرنسية، وصنع صحفا وصحفيين.

بدأت علاقة مصطفى أمين بالأمريكان، حين كان يدرس في جامعة جورج تاون في واشنطن، ومن هنا تشعبت علاقاته مع هؤلاء الشباب الذين أصبحوا بعد ذلك يشغلون أهم المناصب في السفارات الأمريكيّة في العالم، أو في الخارجية الأمريكية. بعد عودته من الولايات المتحدة وعمله بالصحافة أدرك أن قيمة الصحفي ومكانته تستمد من قوة معلوماته التي يحصل عليها من مصادره، فتواصل مع هؤلاء الدبلوماسيين إضافة إلى علاقته التي توطدت بالقصر الملكي وتأسيسه أخبار اليوم عام ١٩٤٤ التي صدرت في قالب يختلف عن الصحف المصريّة مثل المقطم والأهرام، بل وهزمت مجلة آخر ساعة في المعلومات والتوزيع، على الرغم من أن آخر ساعة صاحبها ورئيس تحريرها هو الأستاذ محمد التابعي الذي أخذ هيكل من الإيجبشيان جازيت التي بدأ فيها هيكل عمله في الصحافة، واضطر التابعي إلى أن يبيع آخر ساعة لمصطفى وعلي أمين لكن آل أمين طلبوا من التابعي أن يستمر هو وهيكل في آخر ساعة وفي أخبار اليوم، وقد استطاعا بالفعل إكمال نجاح تجربة أخبار اليوم.

كانت مجلة «آخر ساعة» وفديّة، وبعد خروج الوفد من الحكم عقب إقالة الملك له في ٨ أكتوبر ١٩٤٤، ذهبت «آخر ساعة» لجبهة المعارضة أمام حكومة ائتلاف أحزاب الأقلية التي ترأسها أحمد ماهر باشا رئيس حزب السعديين. لكنها لم تصمد في دفاعها عن الوفد أمام

قوة أخبار اليوم. نجح مصطفى أمين في أخبار اليوم، واستولى على لب الجمهور بأسلوبه، ومعلوماته الخاصة عن القصر، التي كتبها في سلسلة مقالات تحت عنوان "لماذا ساءت العلاقة بين القصر والوفد".

وفي العام ١٩٤٦ اشترى مصطفى أمين مجلة آخر ساعة، وتداخلت الصحافة بالسياسة، وهو وضع طبيعي في العالم الثالث، أن يكون كلاهما في تداخل وتأثر وتأثير، وظلت منطقة قناة السويس بؤرة ملتهبة بالأحداث بين مستعمر، وشعب يطمح للخلاص من عبودية الاستعمار، وملك عاجز عن اتخاذ قراره منفرداً، ووفد وضع بين فكي كماشة، وصحافة مصطفى أمين هي التي سيطرت على السوق الصحفي وحققت نجاحاً غير مسبوق.

حتى جاء يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقام جمال عبد الناصر والضباط الأحرار بقلب دفة الموازين كلها، كأنه زلزال لم يجد أحد التصرّف حياله، وكان على صحافة مصطفى أمين بل صحافة مصر كلها أن تحدّد موقفها، وبدأ الجميع التقرّب للنظام الجديد، هيكل الذي خدمه الحظ بمعرفته بعبد الناصر قبل الثورة أثناء تغطيته لحرب ١٩٤٨، ومقابلته له عدة مرات، التابعي، وكامل الشناوي ومصطفى وعلي أمين باسمهم الكبير ومكانتهم في بلاط صاحبة الجلالة، لكن مصطفى كان محسوباً على النظام القديم على القصر بقوة؟! ويقال أنه اشترك بقوة في مناورات إقالة وزارة النحاس عام ١٩٤٤.

وأثناء وزارات الأقليات (من ١٩٤٤ إلى ١٩٥٠) كان مصطفى أمين هو صحفي القصر، حتى أن مكرم عبيد (باشا) عندما أحس

بمناورات القصر، والتي كانت تشن عليه من (أخبار اليوم)،كتب في جريدة (الكتلة) ما يفيد بأن القصر ساعد على إنشاء أخبار اليوم ورصد لذلك مبلغا كبيرا من المال كان هو شاهدا عليه لأنه في عام ١٩٤٤ كان وزير المالية.

واشتهر عن مصطفى أمين العمل الدءوب مع أحزاب الأقليات ومع الملك ضد حزب الوفد لتحطيمه، وكان يرأس تحرير مجلة أسبوعية مصورة يكتب فيها مقالات خفيفة مضحكة بإمضاء مستعار (مصمص) وعرف القراء مصمص الذي كان يضحكهم بالحديث عن البنت التي خربشته من تحت المائدة أمام الضيوف، ويضحكهم بالحديث عن بدانته التي تضايقه أثناء الرقص. ودفعه الطموح أن يرأس تحرير جريدة يكون هو صاحبها رغم أن الكل يعلم أن إصدار جريدة ليس أمرا سهلا، لأن هذا يتطلب أموالا طائلة، ولم يكن مصطفى أمين يملك سوى قلمه وقلم شقيقه (علي أمين)، بل لم يكن يمتلك شيئا عندما حزم أمتعته وجمع أوراقه وغادر دار الهلال، حيث اختلف مع أصحابها لأنه أراد أن يجعل مجلة «الاثنين» مجلة تنطق بلسان السعديين. وما لبث أن حدث اجتماع بين مصطفى وعلي أمين وبشوات القصر الملكي، حيث رسمت سياسة جريدة «أخبار اليوم» الوليدة، وفي لمح البصر تم تجهيز كل شيء، وصدرت الأخبار واختاروا المادة الصحفية التي تثير انتباه الشعب، من أمثال: لماذا ساءت العلاقة بين القصر والنحاس باشا؟

وكان لنفوذ الجريدة الواسع آنذاك في الدوائر البريطانية والأمريكية

أثره في تقديم أخبار جديدة لفتت الأنظار وشدت القراء إليها. ويقول (محمد حسنين هيكل) في كتابه "بين الصحافة والسياسة": إن دار أخبار اليوم تم انشاؤها بأموال المخابرات الأمريكية، بعد الحرب العالمية الثانية، عندما أيقنت "أمريكا" بخروجها منتصرة من الحرب بدأت إنشاء سلسلة من دور النشر الصحفية التي كان عليها أن تروج لسياسة الولايات المتحدة، ونمطها في الحياة وتدافع عن توجهاتها ومصالحها؛ لذا قام عبد الناصر باعتقال مصطفى وعلي أمين، مع عدد من أفراد القصر ورجال الملك فاروق، وبرر عبد الناصر ذلك بأن مصطفى أمين أجرى اتصالاً ليلة ثورة ٢٣ يوليو مع جهة أجنبية خارج مصر؟! أفرج عبد الناصر عنهما، بعد مقابلة مع محمد التابعي وكامل الشناوي وهيكل، ليقابلا عبد الناصر بعد ذلك، وليتحوّل موقف مصطفى أمين لصالح عبد الناصر والنظام الجديد ويقدّم له ولاءه من خلال كتاباته وتسخير أخبار اليوم لصالحه. ولكن حدث ما حدث؟!

وجمعت شهادة هيكل التي ذكرها في كتابه (بين الصحافة والسياسة) كتب في مقدمة الكتاب، أنه ينشر هذا الكتاب وكل أطراف القضية على قيد الحياة، وتحدى الأستاذ هيكل الجميع وأولهم الأستاذ مصطفى أمين أن يستطيعوا تكذيب معلوماته ووثائقه.. قال الأستاذ هيكل في كتابه عن دار أخبار اليوم وعن الأخوين علي أمين ومصطفى أمين، إن دار أخبار اليوم تم إنشاؤها بأموال المخابرات المركزية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية فعندما أيقنت الولايات المتحدة بخروجها منتصرة

من الحرب، بدأت إنشاء سلسلة من دور النشر الصحفية التي هدفها الترويج لسياسة الولايات المتحدة، ونمطها في الحياة والدفاع عن التوجهات والمصالح الأمريكية.

ووجدت بالكتاب (إن الإفراج عن مصطفى أمين جاء ضمن صفقة لإرضاء الأمريكيين والسعوديين وأنه أفرج عنه مع مجموعة من عملاء أمريكا وإسرائيل وبطلب من وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر والأمير السعودي سلطان بن عبد العزيز.. وتساءل الأستاذ هيكل لماذا تأخر السادات في الإفراج عن مصطفى أمين كل تلك المدة من ١٩٧٠ حتى ١٩٧٤ لو كان يعتبره بريئا؟!).

وفي عام ١٩٩٠ أصدر الأستاذ هيكل كتابه الوثائقي الضخم (الانفجار ١٩٦٧) عن وقائع حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ وأعاد في الكتاب اتهام مصطفى أمين بالتجسس لحساب الأمريكان، ونقل محضر لقاء بين الرئيس عبد الناصر والزعيم الباكستاني ذو الفقار علي بوتو، يدين فيه الرئيس عبد الناصر مصطفى أمين وينقل لذو الفقار علي بوتو وقائع قضيته كدليل على تأمر الأمريكان ضد مصر وسعيهم المستمر للتخلص من نظام حكمه، وعاود هيكل تناول قضية تجسس الأستاذ مصطفى أمين لحساب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وذلك عبر حلقات برنامجه "تجربة حياة" والتي تم عرضها على فضائية الجزيرة عام ٢٠٠٩ وعرض معلومات جديدة عن القضية من كتاب صدر مؤخرا باسم "ميراث من الرماد.. تاريخ وكالة المخابرات المركزية الأمريكية" للصحفي الأمريكى

(تيم وينر) والكتاب يتناول تاريخ الوكالة منذ إنشائها وحتى نهاية عهد الرئيس (جورج دبليو بوش) ذكر الأستاذ هيكل ما أورده الكتاب عن قضية تجسس مصطفى أمين بالتفصيل، وما سببته من مشاكل بين وزارة الخارجية الأمريكية، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية بسبب ما ترتب على كشفها من زيادة في سوء وتوتر العلاقات المصرية الأمريكية وإحراج السفير الأمريكى في القاهرة الذي لم يكن يعلم بتجسس مصطفى أمين لحساب المخابرات المركزية الأمريكية، رغم أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية طلبت من مصطفى أمين تسجيل مكالماته مع الرئيس عبد الناصر ليقوم خبراؤها بتحليل صوت الرئيس لمعرفة حالته النفسية،كما طلبت منه توجيه أسئلة معينة للرئيس عبد الناصر لكى يتم تحليل إجابات عبد الناصر ومعرفة حقيقة نواياه وطريقة تفكيره.

وقال هيكل بالكتاب أن مصطفى أمين كان يسأل أطباء الرئيس عبد الناصر باستمرار عن حالة الرئيس الصحية ليقوم بتبليغها للأمريكان وحدث ذلك منذ سنة ١٩٦٠ فهل كان مصطفى أمين، حقا، بطل رواية فتحي غانم "زينب والعرش".. أهو هو.. هو عبد الهادي النجار، فقد قال بالرواية (إذا أرادوا أن يجنّدوك في خدمة فاقبل على الفور لأنّك ستكتشف أن كل الذين تعمل معهم هنا يتصلون بالمباحث) والذي قال بالرواية: وهل هذا سؤال يسأله شاب ذكي مثلك، أم أنك تتغابى، أنا رجل الاستخبارات الأول في هذه الجريدة، وإن كان هذا لا يمنع من مراقبتي، وتسجيل كل حركاتي وسكناتي، وإحاطتي ومحاصرتي بأجهزة الاستخبارات ورجالهم".

الجورنالجى.. وأولاد كاره؟!

في رواية فتحي غانم الأخرى «الرجل الذي فقد ظله» اتفق الجميع على أن الشخص الذي قصده بكلماته كان الكاتب محمد حسنين هيكل.. تقول زوجة فتحي غانم "زبيدة عطا": وبالفعل عندما صدرت «الرجل الذي فقد ظله» اعتبر «هيكل» نفسه الشخص الذي تدور حوله القصة، فاستعان بالكاتب الكبير وقتها محمد التابعي لتقصي تلك الحقيقة، وبالفعل هاتف «التابعي»، «غانم» قائلًا: «محمد يقصد (محمد حسنين هيكل) بيقول إنك كاتب عننا رواية» فأجابه فتحي غانم مكتفيًا بقوله: دا خيال مش أكتر..

فالمصريون عندهم مثل شعبي شائع يقول «عدوك ابن كارك» وهو للحق من أصدق الأمثال التي ثبت صحتها، ففي كل مهنة هناك المتفوق وهناك الخامل الحاسد الذي يحاربه ويزرع الألغام في طريقه ويشوه نجاحاته في أعين الآخرين كي لا يبدو صغيراً جداً مقارنة به، وهذه ظاهرة قديمة قدم التاريخ نفسه تسمى في الثقافة العربية «حسد الأقران» وقل أن يوجد ميدان مهني خالٍ منها لأن الفشلة في هذا العالم هم الأغلبية دائما، وفي الصحافة «حسد الأقران» بالزيادة ولطالما حورب الجورنالجى المبدع والكاتب المتفرد "هيكل" وفعلها معه حتى الصحفيون الكبار أنهم حسدوه كما يقول (عادل حمودة) حتى على خصومه؟! فعلاقة محمد حسنين هيكل بالرئيس جمال عبد الناصر عند الكثير من الباحثين والحاقدين والتي

سماها هيكل في أحد أحاديثه "صداقة الحظ والشرف" ورآها آخرون من أعداء الرجلين "شراكة في حكم مصر"؟! تلك العلاقة بين الرئيس عبد الناصر وهيكل جعلت هناك شيئا يحدث بين الأصدقاء في أخبار اليوم حيت عمل هيكل في آخر ساعة وتألق ضيه ليتحولوا لأعداء حسدا، سحرا، نفاثات في العقد، فمصطفى وعلي أمين عملا الكثير لهيكل، أجرا له شقة الزوجية، واشتريا له حجرة النوم والسفرة، أما التابعي أستاذه ومكتشفه والذي أتى به من "الاجيبشيان جازت" وغير فكره من الكتابة في الجريمة والحرب إلى الكتابة في المسرح والبرلمان، فقد أهداه البدلة والكارفت وأغلى زجاجات البرفان يوم فرحه. ورد هيكل الجميل شغلا ومصابرة في آخر ساعة والأخبار، وارتفعت أعداد التوزيع، ورفض هيكل عرضا من عبد الناصر بتولي صحافة الثورة الجديدة سواء في مجلة التحرير، أو جريدة الجمهورية، ويقول هيكل (كانت أخبار اليوم محور حياتي كلها وتحولت العلاقة التي تربطني بأصحابها إلى ما يشبه علاقة أخوة خصوصا علي أمين الذي كنت شاهدا على زواجه الأول، ثم أصبح هو شاهدا على زواجي سنة ١٩٥٥).

وكان بينهم (هيكل والأخوين أمين) طقس مقدس هو "غداء يوم الثلاثاء" يناقشون فيه كل شيء، وهو طقس لم ينقطع إلا بسجن مصطفى أمين".

وقدم هيكل أكثر من مرة للأخوين أمين مساعدات بعد تأميم الصحافة ١٩٦٠ فقد أعلنت التشكيلات وكان القرار بتعيين "أمين شاكر" ضابط جيش ومدير مكتب عبد الناصر رئيسا لمجلس إدارة أخبار

اليوم مع خلو مجلس الإدارة من أسم الأخوين، واتصل هيكل بعبد الناصر يرجوه ويحاول إقناعه بإضافة اسميهما لمجلس الإدارة، ونجح..

ويقول هيكل (وركبا معي سيارتي ودخلنا دار أخبار اليوم، في مشهد لا تخطيء العين في دلالته) ورأى أمين شاكر ما حدث، وأحس بالطبع أن أصحاب الدار القدامى قد فرضا عليه وبدأ محاولات شد وجذب قال عنها هيكل: (كان الأستاذان على ومصطفى أمين زوارا يوميا لمكتبي بتفاصيل ما يحدث وطلب التدخل).

ونجح هيكل بأن يجعل مصطفى أمين المشرف العام على التحرير، ولكن وصل الخلاف لحد أن الأمن منع الأخوين أمين من الدخول لأخبار اليوم واستمر تدخل هيكل لصالحهما وأعفى عبد الناصر أمين شاكر من رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم، ومرة أخرى، وبسيارة هيكل يذهب الثلاثة للأخبار في مشهد له دلالته.

ويقول هيكل (ولكن عبد الناصر لديه توازنات؛ فعين لمجلس إدارة أخبار اليوم "كمال رفعت" وتكررت القصة فإذا (بعلي أمين ينقل لدار الهلال وجلال الحمامصي ذراع مصطفى أمين في التحرير يفصل من أخبار اليوم) وفجأة أعطى مساعد كمال رفعت في نوبة غضب مصطفى أمين أجازة مفتوحة وعرض هيكل الأمر مرة أخرى على ناصر الذي ضاق صدره وقال لهيكل (قل لأصحابك يعقلوا ويعملوا كصحفيين محترفين فقط، ولن أقبل مرة أخرى أن يستندا على صلتك بي) وللمرة الثالثة يصحب هيكل الأخوين أمين لأخبار اليوم في سيارته في مشهد واضح

الدلالة، وحين وصلا وكان ذلك في يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٦٤ وجدوا الأستاذ (خالد محيي الدين) بمكتب رئاسة مجلس إدارة أخبار اليوم، فعند عبد الناصر دوما توازنات!

وكان موقف هيكل إيجابيا مع الجميع؛ فعند صدور قرار بإبعاد موسى صبري عن الصحافة ونقله لشركة (باتا – للأحذية) بحجه أنه حول قضية المؤامرة على الحكم المتهم فيها "شمس بدران و٢٢ آخرون" إلى قضية فساد حكم، وذلك لأنه نشر ما اعترف به المتهمون عن وقائع إخفاء ذهب حصلت عليه مصر من السعودية لحساب عبد الحكيم عامر، ثم كتب وما خفي أعظم؟! وأصدر ناصر القرار وهو خارج من اتحاد الصحفيين العرب بعد أن تحدث على حرية الصحافة في الاجتماع، فلم تعجبه عبارة (وما خفي أعظم؟!) وتدخل هيكل بشدة طالبا تأجيل القرار حتى تهدأ الزوبعة، وبعد فترة استبدل القرار بالعزل من رئاسة تحرير الأخبار للنقل لصحيفة الجمهورية.. وتدخل هيكل وأعاد تعيين "جلال الدين الحمامصي" بالحد الأقصى للمرتبات ليكون مشرفا عاما على صحف أخبار اليوم.

ولكن الصحفيون يرون هيكل الصحفي الأوحد، في عهد عبد الناصر وحتى في رحلات الرئيس للخارج، ثم أصبح هيكل ليس صحفيا فقط بل ضمن الوفد الرسمي في أية مباحثات؟! وكانت أخبار الدولة حكرا على هيكل والأهرام، وكانت النكتة (الصحف المصرية تصدر من إندونيسيا عدا الأهرام من مصر) أي لا أخبار عن مصر إلا في الأهرام،

وأعطيت كل امتيازات الإعلانات للأهرام، ولم يجرؤ أحد على مقاضاة الأهرام، أنها جريدة الرئيس، فمن يقاضي الرئيس؟! وبعد هزيمة ١٩٦٧ تعرض هيكل لهجوم في الصحف ففرض عبد الناصر الرقابة على الصحف. وعادت ريما لعادتها القديمة.. كل الأخبار للأهرام، وتذمر الصحفيون ونقل غضبهم "سعيد سنبل" لأحمد بهاء الدين الذي كان وقتها نقيبا للصحفيين، فأرسل احتجاجا مكتوبا لعبد الناصر، يقول فيه (هناك نوع من الأخبار يجوز فيه السبق والانفراد، ولكن هناك نوعا من الأخبار يتعلق بالمصالح القومية العليا ولا يجوز فيها أن تحتكرها صحيفة ما، فلو خص بها رئيس الدولة جريدة دون أخرى فكأنما هو يميز بين المواطنين) وتصاعدت الحملة ضد هيكل متسترة بالامتيازات التي وفرت للأهرام، كسهولة استيراد المعدات، ووفرة استخدماتها للعملة الصعبة، فقرر عبد الناصر انتداب علي صبري والسادات لحل مشاكل الصحف، فهل نحتاج لكتاب عن "هيكل المفتري علينا، والمفترى عليه"؟!

هيكل نفسه يعترف في كتاب فؤاد مطر (بصراحة عن عبد الناصر) بأن جمال عبد الناصر كان على علاقة بعدد كبير من الصحفيين، ويقول «في النهاية وبالاختيار الحر وعن طريق الممارسة ازددت قرباً منه لم يختصني بوضع استثنائي إنما ألقى عليَّ مسئولية استثنائية، ولقد فعل ذلك إحساساً منه بأنني أؤدي دوراً في نظامه».. لنقل «اكتساب الثقة» كانت موهبة هيكل وهي موهبة لا يباريه فيها أحد حسب رأي إحسان عبد القدوس (هيكل كان الصحفي الوحيد الذي كسب ثقة والدتي؛

فقربته إليها إلى حد كبير) تفوق هيكل على إحسان عبد القدوس صاحب معركة «الأسلحة الفاسدة»، وتفوق على أحمد أبو الفتح بكل معاركه ونفوذه وماله، وتفوق على حلمي سلام الذي اقترب حتى احترق وحرموا عليه الصحافة وهو في الـ ٤٤ من عمره؛ فقط لأنه اختار الحصان الأعرج، اختار اللواء نجيب ومن بعده عبد الحكيم عامر لأنه بلا شك كان يملك ما لا يملكونه، تفوق عليهم، لأنه كان مؤهلاً لهذا التفوق، ولأنه كان موهوباً بالفطرة ليتبوأ تلك المكانة وحده هيكل، دفعته جملة مصادفات إلى حيث يمكنه أن ينفرد بتلك المكانة وكان مؤهلاً أكثر من غيره للتعبير عن أفكار القادم الجديد.

وطبيعي أن ينفي هيكل، ما قيل عن أنه كان يجلس مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قبل ظهور مقاله الأسبوعي في الأهرام (بصراحة) أو أنه كان يجري اتصال بينهما لإطلاع الرئيس على ما يكتب، ويقول هيكل في حوار مع مجلة (نصف الدنيا): «كان بيننا اتفاق غير مكتوب على ذلك، ولعل هذا سبب المشاكل فيما بعد بيني وبين الرئيس السادات".

يروي هيكل أن السادات طلب منه أن يكتب عن ثورة السودان، فقال له هيكل: أخشى أن تفهم سيادتك أن عبد الناصر كان يحدد لي ما أكتب فيه، وهذا غير صحيح، وأنا أعترض على أن تحدد لي ما أكتب فيه).

ويقدم شفيق الحوت شهادة تؤكد المعنى نفسه على لسان عبد الناصر فيقول: «أول مرة هاجمت فيها هيكل كانت أمام عبد الناصر،

ولم يكن هيكل حاضراً، وقلت لعبد الناصر: سيادة الرئيس نريد أن نعرف إجابة سؤال يحيرنا: هل هيكل يمثلك؟ نحن برأينا أنه أمريكاني؟! يقول "شفيق الحوت" وهو يضحك:كنت شاباً ومتهوراً، فطرحت هذا السؤال، بهذه الطريقة، فسألني عبد الناصر: تقول «نحن برأينا» فمن أنتم؟ ثم أضاف: تقصد شلة «مطعم فيصل»، وتابع عبد الناصر: "لا شك أن هيكل مستفيد من قربه مني، وهو مطلع، ولكن ما يكتبه يمثله هو وليس أنا، وسأقول لك الدليل على ذلك"، وسألني إذا كنت قرأت المقال الأخير لهيكل فقلت (نعم لقد قرأته)، وأراد ناصر أن يعرف رأيي فيه، وأجبت: "حسناً.. لم يترك لدي انطباعاً قوياً، ولم تبد لي أن هذه المقارنة حقيقية" فقال وهو يبتسم: "قلت هذا لهيكل.. لا يوجد أي تشابه أو تماثل بين الحالة في كوبا، والحالة هنا بالسويس"، ورفع السماعة وكلم هيكل وقال له: "شفيق معايا في الرأي يا عم لا يوجد أي تشابه أو تماثل بين الحالة في كوبا، والحالة هنا بالسويس".

ولم تكن العلاقة في ظل عبد الناصر «سمناً على عسل» طول الوقت، بل جرت توترات كبيرة شابت مجرى العلاقة بين الزعيم والكاتب، أكبر هذه التوترات كما يسميها هيكل.كانت في اليوم الذي أصدر فيه عبد الناصر قرارا بتعيينه وزيراً للإعلام دون أن يفاتحه في الأمر، فأرسل له «رسالة اعتذار» عن المنصب، وكانت هذه هي الورقة الوحيدة المكتوبة التي رفعها هيكل إلى الرئيس عبد الناصر، واستخدم عبد الناصر أنور السادات لكي يبلغ هيكل أن عبد الناصر قرر، ولا

مجال لقبول الاعتذار، وإنما هو قرار صدر، وانتهى الأمر وقبل هيكل المنصب.

ويذكر موسى صبري في كتابه "السادات الحقيقة والأسطورة" أن عبد الناصر عاقب الجميع، لم يترك صحفيا مهما اقترب منه، وتعرض هيكل لأزمتين معه الأولى عندما اشترى هيكل ضيعة بالهرم بثمن بخس من أحد العاملين الكبار بالأهرام من أصل لبناني، والتي عرفت فيما بعد ببيته الريفي، والمرة الثانية في أواخر عهد ناصر، عندما انتصرت مراكز القوة المقابلة (علي صبري – سامي شرف) واقتنع عبد الناصر بأن هيكل حوَّل الأهرام لمركز قوة لحسابه، وقدم لعبد الناصر شريطا مسجلا بما يجرى في بيت لطفي الخولي، واشتركت فيه سكرتيرة هيكل وزوجها، فأمر عبد الناصر بالقبض على الجميع، وعين هيكل وزيرا للإرشاد "الإعلام" تمهيدا لعزله من الأهرام.

على كل حال، فأنا أرى أنه من حسن حظ جمال عبد الناصر أنه وجد واحداً مثل هيكل بالقرب منه، ومن حسن حظه أيضاً أنه وجد مفسراً ومعبراً عن سياسته بهذه الروعة التي وجدها في هيكل الكاتب والصحفي.. كان عبد الناصر فوق قمة الهرم، وهناك فوق تلك القمة لا أحد غير العزلة والوحدة، ولا شيء غير صقيع القمة. وفي ذلك الصقيع يصبح واحد مثل هيكل هدية من السماء، ولا شك أن العلاقة بين هيكل وعبد الناصر ليست فريدة في بابها، فالعقاد كان إلى جوار سعد زغلول هو «الكاتب الجبار للزعيم الجبار» يدافع عنه، ويشن الغارات على

أعدائه، ويطلق نيران قلمه الجبار عليهم، فتتناثر جثثهم على صفحات الصحف. وقبله كان عبد الله النديم هو لسان الثورة العرابية البليغ، وترجمان أحمد عرابي ورسوله إلى قلوب الغلابة، وكان (الكاتب الشهير محمد التابعي) أستاذ هيكل واسطة مصطفى النحاس إلى الناس، حارب إلى جواره بقلمه (بالمانشيت، والخبر، والمقال القصير الرشيق، والتعليق الساخر) ذلك أن القيادة أو الزعامة تحتاج إلى لسان حالٍ يُعبر عنها، وينقل أفكارها وسياستها، بالشكل المناسب إلى الجماهير. هيكل توحد بالسلطة زمن جمال عبد الناصر، حتى أصبح اللسان البليغ المعبر عن أفكار الزعيم وأصبحت مقالاته مقروءة ومؤثرة، وأدى مهمته، كان يقول عنها عبد الناصر: «هذا بالضبط ما كنت أريد أن أقوله».

ولم أكن أن أدرك أن الخلاف، امتد وتغول في الصحافة، حتى كانت جنازة أنيس منصور، لقد كان مفهومًا بالنسبة لي ألا يحضر هيكل جنازة مصطفى أمين، فقد كان هيكل يدين بالفضل لمصطفى وأخيه علي صحفيا وإنسانيا إلا أن السياسة فرّقت بينهم، وردًا على اتهام مصطفى لهيكل بأنه كان يقف وراء اتهام عبد الناصر له بالجاسوسية، أصدر هيكل كتابه الحاد والصارخ «بين الصحافة والسياسة» اتهم فيه هيكل مصطفى أمين أنه يجيد فبركة الأكاذيب، ويصدقها، ويزيد عليها، وأنه يلعب على كل العصور، وأنه لم يلفق له شيئا عندما قبض عليه في ٢١ يوليو ١٩٦٥ متلبسا مع مندوب المخابرات الأمريكية (بروس تايلور أوديل) في حديقة منزل مصطفى، من جهة أخرى تابع هيكل القضية في كل

بحث وكتاب، ليثبت للعالم أن يده نظيفة من دم مصطفى أمين فكتب عن كتاب (صلاح نصر) رئيس المخابرات المصرية «عملاء الخيانة وحديث الإفك» الذي صدر ١٩٧٥ وشرح فيه بالتفصيل علاقة مصطفى أمين بالمخابرات الأمريكية، والأكثر من ذلك ذكر صلاح نصر أن جهاز مكافحة التجسس كان يحتفظ بملف لمصطفى حول علاقته بالمخابرات الأمريكية حتى من قبل ثورة يوليو ١٩٥٢؟!

كما نشر (هيكل) وثيقة من ٦٠ صفحة، بخط يد مصطفى أمين تتضمن اعترافه، للرئيس عبد الناصر، بعمالته للأمريكان، ويطلب فيها العفو من الرئيس، ونشرها في كتابه بين السياسة والصحافة. وأصر مصطفى أمين أنّ لهيكل يد في القبض عليه أو أنه لم يقف معه ضد تهويل السلطة لاتهامه فهو يرسل مبالغ صغيرة من المال لأخيه علي أمين في لندن فيعتبروها قضية تهريب أموال (المال ماله ولم يسرقه، ومن عرق جبينه)، ثم يجدوا ضمن المضبوطات جوازي سفر دبلوماسيين صرفهما له وزير الخارجية لأنه مكلف بمهمات رسمية لدى أمريكا من قبل الرئيس عبد الناصر فيعتبرونه جاسوسا؟!

ولكن لم يكن مفهومًا لي على الأقل – كأحد تلاميذ أنيس منصور في يوم جنازته – صحيح أنها لم تكن جنازة شعبية تليق بقيمة وقامة كاتب في حجم جماهيريته وانتشاره وتوزيعه الخارق لكتبه – ألا يحضرها هيكل!! فما الخلاف الذي وصل إلى درجة العداء التي تجعل رجلا مجاملا مثل هيكل يحرص على المشاركة في عزاءات وجنازات كثير من

أصدقائه، ويمتنع عن وداع صديق قديم، خاصة أن الموت يحسم الخلافات ويحاصرها؟! كانت ملاحظة أكثر من عابرة إذ أنها شغلت غيري كما شغلتني، وقالوا في العزاء أنها السلطة والسياسة، أنهما ورثا ما بين عبد الناصر والسادات؟! فلهيكل كتاب عن قصته مع السادات وأسباب صدامه معه هو "خريف الغضب" يقول فيه ليس بيننا إلا الود على المستوى الإنسانى،كنت صديقه وأكلت معه عيشا وملحا، ولكن على مستوى المبادىء فبيننا ما بين المشرق والمغرب!

ولأنيس منصور كتاب ضد عبد الناصر أغضب كل الناصريين هو: "عبد الناصر المفتري علينا والمفترى عليه" وفيه شن أنيس هجوما "أرض/جو" على عبد الناصر فليس بينه والرئيس عبد الناصر ود ولا عيش وملح، فعبد الناصر رفته من عمله ومنعه من الكتابة وأقفل في وجهه الإذاعة والمسرح، حتى أن أنيس فكر في الهجرة وأن يهج لإيطاليا، وكان هذا أيضا ممنوعا بتعليمات الرئاسة؟ وقيل أن أنيس كان يحب فتاة إيطالية، ولكنها رفضت أن تعيش معه ومع أمه في مصر.. أما الآن وهو "عوطلي" وعبد الناصر قفل كل الأبواب فلا بأس من إيطاليا نافذة، ولكن تقريراً من صلاح نصر بالقصة قلب المعادلة؛ فالرئاسة تريد أن تعكنن على أنيس لا أن تفرحه "بالزغلول الإيطالي"؟!

وفي حوار طويل "لوليد كامل" مع أنيس منصور، قال أنيس (لولا هيكل ما تزوجت، فقد تقدم معي لإخوة زوجتي، وكانا من رجالات الثورة الأحرار، وتلقوا نصائح ثورية وقتها ألا يصاهر الأحرار الصحفيين.

وتزوجت بضمان هيكل، بعد أن وجدوا عني تقارير بأني زير نساء، وقال هيكل: "دي تقارير عن واحد لا بيكتب ولا بيقرأ ولا بيدرس بالجامعة، أنيس مش فاضي يهرش" فهيكل هو من أقنع عبد الناصر بزواجي، فخال السيدة "رجاء حجاج" السيد زكريا توفيق هو أحد الضباط الأحرار، وعندما تقدمت لخطبتها وعلم ناصر أبدى اعتراضه على الزيجة. وكما كان معي في زواجي كنت شاهدا على عقد زواجه، ولكن ما عمله مع عبد الناصر ضد الصحافة والناس لا يغتفر، إنها المبادىء).

وبحثت عن الذي لا يغتفر عند أستاذي أنيس منصور، فإذا بأنيس أكثر الذين يهاجمون هيكل (وهم في الحقيقة يطرونه بأكثر مما يقدحون فيه) فقد رفعه إلى دور الشريك لعبد الناصر في حكم مصر، فهو عنده أصل وعبد الناصر الظل، وأن علاقتهما هي علاقة الصوت بالصدى، ويعد هيكل واحداً من الذين حكموا مصر في الظل، بل يتطاول عليه وعلى عبد الناصر قبله بالقول بأنه كان يحكم عبد الناصر الذي كان يحكم مصر فهيكل هو الوسواس الخناس (شيطان جمال عبد الناصر) الذي زوق له الديكتاتورية، وظلم العباد، ووصل هذا الكلام لهيكل من الرئيس "حسني مبارك" أثناء لقاء معه، قال له فيه الرئيس بفجومية وتهريج (أنا والحمد لله مريح نفسى، مش مقعد صحفي على حجري، كلهم عندي معزة واحدة بس أنيس منصور قاللى يا ريس، هيكل ماكنش على حجر عبد الناصر، ده عبد الناصر هو اللي كان على حجره) وامتص هيكل المرارة، ولم يرد وتذكر يوم ٢٧ أكتوبر حين عينه عبد الناصر

مشرفا على الأهرام والأخبار معا، فيما سمي بهيئة الصحافة، وكيف اقترح على أنيس منصور أن يكون له عمود ثابت يومي كعلي أمين، وبالفعل كان "مواقف" أشهر زاوية في الصحافة والتي كتبها بالأخبار، وانتقل بها للأهرام، وعمل منها ٣ كتب.

وهناك نظرية أخرى عن ما بين ناصر وهيكل، قصة أخرى يحكيها "جون بادو" السفير الأمريكي في القاهرة، والذي كان قريب الصلة من عبد الناصر، لأنه يجيد اللغة العربية؛ ففي كتابه «الشرق الأوسط يعود إلى الذاكرة» ذكر "جون بادو" هيكل في أكثر من موقع، وهو يؤكد أن هيكل كاتب بارع جداً، وله أسلوبه وحيويته، وأن هناك نكهة خاصة للكتابة العربية الجيدة، ويقول: «من الواضح أنه كان رجلاً يحدد له ناصر إطار فكرة ما ويقول له: اذهب واكتبها، وكان هيكل يفعل ذلك، وقد أعجب ناصر بطريقة كتابته، وترتيباً على ذلك، فإن كثيراً من خطب ناصر كتبها هيكل». وفي رأي جون بادو فإن هيكل لم يكن محبوباً من جانب العديد من أعضاء حكومة الرئيس عبد الناصر، وأرجع ذلك جزئياً إلى الغيرة بين رجال السلطة، ولكنه شدد من ناحية أخرى على أن هيكل كان يغالي أحياناً في التأكيد على علاقته بعبد الناصر، ويسعى لاستغلالها، وهو ما كان باعثاً على سخط الآخرين. ويقول بادو:"عندما قدمت إلى مصر، كان محمد حسنين هيكل في أوجه من جوانب متعددة، واستمر الأمر على هذا المنوال طوال الفترة التي كنت فيها هناك، فكل يوم جمعة يظهر مقاله في «الأهرام» وكان موضعاً للاهتمام في السفارة، حيث يجري تحليله، ويتم بعث رسالة إلى الولايات

المتحدة بشأنه بصورة متكررة" ، فكل كلمة كتبها هيكل على لسان عبد الناصر كانت من أفكار عبد الناصر، وبصياغة هيكل لم تكن الأفكار، أفكار هيكل التي راح عبد الناصر يحققها كما قال أنيس منصور وغيره، ولكنها كانت هي أفكار عبد الناصر.

ويؤكد محمد فائق وزير الإعلام الأسبق أن هيكل بالنسبة لعبد الناصر كان معبراً جيداً عن أفكاره، ولذلك كان يطلعه على تفاصيل الصورة لكي يعبر عنها بشكل أفضل، ومن هنا سبب إطلاع هيكل على الأوراق، وحتى على ما يفكر فيه عبد الناصر.

وعند مفيد فوزى نظرية ثالثة "محدش على حجر حد" كان هيكل يكتب من موقع أنه في «صورة ما يحدث»، ولم تكن كتاباته من وحي جمال عبد الناصر، ولا هي كانت بالونات اختبار يطلقها الرئيس من أجل التعرف على حقيقة الرأي العام من حوله، وهناك أكثر من قصة كلها تؤكد أن عبد الناصر كان يقرأ مع القراء مقال هيكل بعد نشره، ومن الجريدة مباشرة هيكل نفسه يحكي إحدى تلك القصص في حوارٍ له مع مفيد فوزي فيقول: «أذكر أني عدت من رحلة في أوروبا عام ١٩٦٤، وكتبت مقالات بعنوان «رحلة إلى شواطئ مجهولة»، وكتبت عن عدم الانحياز، فذهب سفير الهند وقابل الرئيس عبد الناصر وقال له: هل هناك تغيير في مفهومكم لعدم الانحياز؟ قال له عبد الناصر: لماذا؟، فقال السفير الهندي: هيكل كتب مقالة يلمح فيها إلى هذا التغيير، وقال عبد الناصر: والله؟ لم أقرأها؟!

فعند "مفيد فوزى" هناك فارق بين ما كان يكتبه هيكل معبراً عن رأيه في مقالاته، وبين ما كان يكتبه من خطابات ورسائل ووثائق معبراً فيها عن أفكار عبد الناصر، بعض مقالات هيكل لم يكن يوافق عليها عبد الناصر ولكن عبد الناصر كان رئيس دولة مثقفا، وهيكل يعترف بأن عبد الناصر أثر فيه على المستوى الفكري، بل كان يحيل إليه بعض الكتب التي يرى أهمية في أن يقرِأها، وكان يفعل ذلك مع عدد من معاونيه والعاملين معه، وكل هذا الجيل كانت الثقافة عنده مسألة وطنية.

توفيق الحكيم يعلن مانيفستو صحافة المعارضة

أصدر الكاتب توفيق الحكيم كتابه «عودة الوعي» مثيرًا ضجة إعلامية بعد انتقاده الشديد للرئيس جمال عبد الناصر وسياسته وحكمه واصفًا تلك المرحلة بأنها كانت مرحلة عاش فيها الشعب المصري فاقدًا للوعي، في هذا الكتاب الصادر عن دار الشروق في بيروت عام ١٩٧٤، يتطرق توفيق الحكيم إلى الحالة الفريدة التي شكلتها ثورة ٥٢ بقيادة عبد الناصر وهو ليس دراسة، وانما هو مشاهد ومشاعر استرجعها بذاكرته ما بين ١٩٥٢– ١٩٧٠ منتقدًا الرئيس الراحل عبد الناصر وليس لها أي مرجع آخر، وسرعان ما صار هذا الكتيب «مانيفستو» تدشين لحملات على الثورة وقائدها بإضافة إسهام بحجم وقيمة وقلم المفكر توفيق الحكيم

جاء الكتيب في ٧٧ صفحة مفاجئاً لكثيرين كانوا ينظرون لتوفيق الحكيم باعتباره الأب الروحي لثورة يوليو، الذي تأثر عبد الناصر بكتاباته قبل الثورة، والذي حظي في ظل حكم عبد الناصر بتكريم لم يحظ به كثيرون غيره من الكتاب والأدباء، إلى جانب أن الناس لم تكن قد نسيت بعد مرثيته الحزينة في عبدالناصر (اعذرني يا جمال القلم يرتعش في يدي ليس من عادتي الكتابة والألم يلجم العقل ويذهل الفكر. لن أستطيع الإطالة، لقد دخل الحزن كل بيت تفجعا عليك، لأن كل بيت فيه قطعة منك. لأن كل فرد قد وضع في قلبه لبنة في صرح بنائك) ولا

دعوته الملحة إلى جمع التبرعات لإقامة أكبر تمثال لعبد الناصر في قلب ميدان التحرير؟!

يقول الحكيم في مخطوطته: «عندنا فإن قائدنا الخالد بهزائمه العسكرية المتلاحقة التي غامر فيها بأموال شعب فقير ليحتل أرضه في النهاية عدو صغير، بقي ليتنصل من هزيمته ويجعل مشيره هو الذي يدفع الثمن بانتحاره، ويقدم قواده إلى المحاكمات وتلقى عليهم التبعات، وحتى من أراد تلميحًا عن فساد أو هزيمة أو نكسة فيجب إبعاد شخص الزعيم عن كل مسؤولية، وهكذا استمر في كرسى الحكم على مصر والزعامة الناصرية على العرب جميعًا تلك الزعامة التي خربت مصر ونكبت العرب».

توفيق الحكيم يقول في مخطوطه أنه أخطأ بمسيرته خلف الثورة بدون وعي قائلا "العجيب أن شخصا مثلي محسوب على البلد أنه من أهل الفكر وقد أدركته الثورة وهو في كهولته يمكن أن يساق أيضا خلف الحماس العاطفي ولا يخطر لي أن أفكر في حقيقة هذه الصورة التي كانت تصنع لنا،كانت الثقة فيما يبدو قد شلت التفكير"..يقول «اعتدنا عدم التفريق بين النقد والهجوم، وعدم الفصل بين التقدير والتقديس، فتقديس عبد الناصر ألصق تهمة الهجوم ضد كل من يناقش أو ينقد أي عمل لعبد الناصر» يقول «الحكيم» أيضًا إن "بعض الحكام قد يخافون من إيقاظ عقول الجماهير على أساس أنهم لو أيقظوا هذه العقول فستفكر وتتعبهم وهذا غير صحيح، فالحاكم الناجح لا يجب أن يخشى

من إيقاظ عقول الجماهير، بل على العكس يسعد بذلك لأن هذه الجماهير ستؤيده بعقولها المتيقظة"..

كتب توفيق الحكيم «عودة الوعي» كنقد موضوعي للنظام الناصري، الذي استقبله من قبل بالحماسة، والذي يرى أنه تحول شيئًا فشيئًا إلى نظام بوليسي، وأدى ذلك إلى هزيمة منكرة من عدو صغير يقصد إسرائيل ومن يقرأ «عودة الوعي» يتصور أن كاتباً بحجم وقيمة توفيق الحكيم لم يكن ليجرؤ على أن يكتب في ذلك العصر الذي قاله عنه حين عاد وعيه (سحرونا ببريق آمال كنا نتطلع إليها من زمن بعيد، وأسكرونا بخمرة مكاسب وأمجاد، فسكرنا حتى غاب عنا الوعي. اعتدنا هذا النوع من الحياة الذي جعلتنا فيه الثورة مجرد أجهزة استقبال).

ولكنه في عام ١٩٦٦ قبل هزيمة يونيو بسنة كتب (بنك القلق) ونشرها في أوسع الصحف انتشاراً صحيفة «الأهرام» وقدم فيها نقداً حاداً لأجهزة الأمن وحذر القيادة السياسية من أن غياب حرية المواطن يقود حتماً إلى فقدان حرية الوطن. حين عرض الحكيم «بنك القلق» على محمد حسنين هيكل رئيس تحرير «الأهرام» وقتها، أخذها هيكل معه إلى البيت وقرأها في نفس اليوم، وبدا أمامه بوضوح أن القصة نقد في الصميم لأجهزة الأمن والمخابرات في شكل عمل أدبيّ، وقرر هيكل نشرها على صفحات الأهرام وعندما عرف الحكيم قرار هيكل بدا عليه الارتباك مؤكداً أنها مجرد رواية تجريبية، لأنها تجمع بين "الرواية والمسرحية" فتبدو مباشرة زاعقة، وتساءل حول إمكانية التروي قبل

نشرها، فقال له هيكل: (إذا كانت لديك الشجاعة لتكتب، فلديّ الشجاعة لأنشر) ولا شك في أن الأجهزة الأمنية قد أقلقها بشدة نشر «بنك القلق»، وذكر هيكل أن المشير عبد الحكيم عامر طالب بوقف النشر، ولكن عبد الناصر انحاز مجدداً لحق الكاتب الكبير في كتابة ما يشاء وقال: "كيف يتمكن توفيق الحكيم في العهد الملكي أن ينقد المجتمع المصري في كتابه «يوميات نائب في الأرياف» ثم لا يستطيع في عهد الثورة أن ينقد ما يراه مستحقا للنقد" .

الحكيم نفسه قال "بعد عودة وعيه" في كتيب عودة الروح: إنه أراد أن يبعث رسالة إلى جمال عبد الناصر عبر «بنك القلق» يعبر فيها عن قلق المجتمع من قمع السلطة، وملاحقة أي محاولات للتعبير عن قلق مختلف فئات المجتمع، واقترح أن تصارِح السلطة الشعب بما يقلقها أو بالعقبات التي تواجهها وأن تترك الحرية للمواطنين بالتعبير عن قلقهم، ويقول أنه تأكد أن الرسالة وصلت.

ويرى رجاء النقاش أنها لم تكن تلك المرة الأولى، ولا الأخيرة التي يقف فيها عبد الناصر بجوار الحكيم الذي لم يتمتَّع بروح ثورية مثل كتاباته وإنما قنع بدور الموظف البيروقراطي المُطيع للأوامر مهما كانت، وهو ما تسبَّب في أزمة كُبرى أنصف فيها عبد الناصر أديبه المفضل على حساب وزير في حكومته، ففي عام ١٩٥٣ قام وزير المعارف (إسماعيل القباني) بعملية تطهير في الوزارة وطالت عملية التطهير فصل "توفيق الحكيم" من وظيفته (مدير عام دار الكتب) بصفته (غير منتج) فهو يأتي

ليقرأ الصحف ويكتب لنفسه المسرحيات، ولا يعمل شيئا. وتصدى عبد الناصر وألغى القرار؛ فقدم الوزير استقالته من الوزارة.. يُعلِّق الأستاذ محمد حسنين هيكل عن هذه القضية، في كتاب «عبد الناصر والمثقفون والثقافة» خلال حديث له مع يوسف القعيد، فيقول إنه بعد أن استقال «القباني» جاءني توفيق الحكيم متسائلًا: ماذا أفعل؟ هل أشكر هذا الرجل العظيم (يقصد ناصر) متابعًا:«لم يكن يتصور أن يخرج وزير من الحكم بسبب مشكلة معه هذه الأزمة كادت أن تُولِّد أول لقاء بين الرجلين، بعدما طلب الحكيم من هيكل تحديد موعدٍ له مع عبد الناصر لتوجيه الشُّكر له على تدعيمه إياه ولكن الحكيم بيوقراطي مرعوب، حافظ الحكيم في طلب لقائه من الرئيس على بيروقراطيته المعهودة فاشترط على هيكل أن يستأذن عبد الناصر من الوزير قبل حدوث اللقاء!؟ هذا الطلب العجيب أفسد اللقاء المرتقب فما أن علم عبد الناصر بالأمر حتى ضحك طويلاً وسأل هيكل: هل من المعقول أن أستأذن وكيل وزارة المعارف العمومية من أجل مقابلة مدير دار الكتب؟ ثم أضاف لهيكل: "أتاريه بيروقراطي".

ولم يتفق توفيق الحكيم كثيرًا مع هذه الرواية، فحينما كتب الواقعة أكَّد أنه هو الذي رفض لقاء عبد الناصر بسبب رغبته الدائمة في البُعد عن رجال الحكم، وأنه كان يفضل أن يكتب له رسالة شكر يحملها له هيكل.

ويستطرد النقاش (عام ١٩٥٨) كتب الناقد الأدبي أحمد رشدي صالح عدة مقالات تناول فيها أدب توفيق الحكيم، بالنقد المرير بأنه يقتبس إنتاجه من إنتاج كتاب غربيين سواء في مؤلفه "حمار الحكيم" أو

روايته "الرباط المقدس" ورشدي يعتبر ناقدا جادا وباحثا أدبيا لا يكتب كلاما في الهواء لكن استطراده في اتهام الحكيم بمجموعة مقالات جعل لها صيغة الاتهام، وقرر عبد الناصر إيقاف الهجوم فمنح الحكيم وسام الجمهورية، ونشرت الصحف ذلك الخبر (الرئيس جمال عبد الناصر يقلد توفيق الحكيم وسام الجمهورية) ومع الخبر صورة لرئيس الجمهورية وهو يقلد توفيق الحكيم الوسام، وكان هذا الخبر كفيلا بإيقاف الحملة على توفيق الحكيم وتعزيز مكانته.

ومرة ثالثة في عام ١٩٥٩ أصدر توفيق الحكيم مسرحية (السلطان الحائر) وتقوم فكرتها على الصراع بين القوة والقانون، وأيهما يخدم السلطان وقد اعتبرت أنها توجه نقدا مباشرا لنظام عبد الناصر، وأثارت الكثير من الاعتراضات خصوصا من صلاح نصر والمخابرات وطالب بعض رفاق عبد الناصر، بمصادرتها، ولكن عبد الناصر انحاز إلى توفيق الحكيم ومنحه في عام ١٩٦٠- وفي عز الهجوم على الحكيم- وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى، فقد كان للحكيم عشم مع عبد الناصر فعندما طلب الرئيس عبد الناصر زيارة (الأهرام)، وقد أعد له استقبال حافل وبعد جولته داخل الأهرام أعد لقاء له مع كتاب الأهرام، وخلال حواره معهم عبر قضايا مختلفة،كانت مداخة توفيق الحكيم الوحيدة، حول أسعار البوفيه في المبنى، فهي مرتفعة ولا تطاق، وضحك عبد الناصر والتفت إلى الأستاذ هيكل قائلا له (كل طلبات الأستاذ توفيق الحكيم من البوفيه تدون على حساب جريدة الأهرام).

فتوفيق الحكيم تمتع بسطوة عند عبد الناصر منذ قرأ عبد الناصر له رواية (عودة الروح) والتي كان فيها مسألة الكل في واحد، والزعيم المعبود الذي مصر في حاجة له ليلمها، وأن المهم في الحكم المضامين وليس الشكل، وأحكم بمفردك ولكن بمضامين (الحق والعدل) وما فائدة الأحزاب الفاسدة؟! والمهم في الثورة مصالح الناس [الديكتاتور العادل]، فقد أصدر الحكيم عام ١٩٣٣ رواية (عودة الروح)، وجاء عبر سطورها أن الأمة تتطلع إلى خروج البطل من أبنائها لكي يتم الخلاص على يديه مما تعانيه من آلام ويحقق لها ما تتطلع إليه من آمال.كان ذلك المعنى هو الذي اختمر في العقل الباطن للشاب جمال عبد الناصر. ترتيبا على ذلك كان عبد الناصر يعتبر توفيق الحكيم الأب الروحي لهذه الثورة.

تحكي الدكتورة بثينة التكريتي، في كتابها «جمال عبد الناصر ونشأة وتطور الفكر الناصري» قصة الرئيس مع «عودة الروح» فتقول إن هذه الرواية حظيت بأقصى اهتمام جمال عبد الناصر؛ فقد كان مضمونها الواقعي الانتقادي قد ترك أعمق الأثر في وجدانه، وترسخ من خلال الموضوعات التي أثارها: الواقع الذليل المر، التراث العظيم الخالد، ضرورة ظهور زعيم للمصريين يستطيع توحيد صفوفهم وقيادتهم في النضال من أجل الحرية والوحدة القومية، وكان توفيق الحكيم يشعر بهذا الارتباط وفي إحدى مقالاته بجريدة الأهرام ١٩٦٥م، تفاخَر بمدى عُمق علاقته بعبد الناصر وبتعلُّق الزعيم بروايته، حتى أنه في نهاية كتابه عودة

الوعي يؤكد أنه غير نادم على كتابة «عودة الوعي» بعبارة غريبة: «لو لم أكتبه لكان لا بد أن أكتبه، ولو كان عبد الناصر على قيد الحياة لكنت طلبت أن يطلع عليه وأعتقد أنه كان يوافق على نشره. وإذا طلبت منه كتابة مقدمة له لفعل فهو شخصية عظيمة فعلا مفتوح القلب والعقل"

فالحظوة التي تمتع بها توفيق الحكيم عند عبد الناصر طمأنت الحكيم بأنه يستطيع معارضة عبد الناصر دون أن يتعرَّض لأذى.

ويضيف الأستاذ هيكل شهادته حول إرهاصات خروج عودة الوعي للنور فيتذكر أن الأمر بدأ بعريضة اعتراض على الرئيس السادات، دعا إليها في الأهرام في غيابه مع وفد بالصين، وتحمس توفيق الحكيم لتحريرها، وكانت تدور حول سنة الحسم والتي قال عنها السادات سنة الضباب، وكيفية مواجهة النكسة والحرب مع إسرائيل، وبعد أن وقعها الحكيم، انضم له أكثر من مائة من الصحفيين والمثقفين، وكان ذلك مع مظاهرات ١٩٧١ ولأن الأمور أخذت بتسرع وعدم نظام فقد سمح بتصوير العريضة وتحرك شباب الصحفيين فوصلت لصحف عربية وعالمية قبل أن يدري بها السادات، ليقرأها الرئيس في الصحف!؟ ويغضب السادات ويسب توفيق الحكيم في عدة اجتماعات، ويصفة بـ"العجوز الخرف"، ويصف الموقعين على العريضة بالانهزاميين، ومع غضب السادات الشديد نقل منهم ٨٠ صحفيا لمصلحة الاستعلامات، كان فيهم أبرز الكتاب (أحمد بهاء الدين، د.يوسف إدريس، لويس عوض، مكرم محمد أحمد، والسيدة أمينة شفيق) وكان ببيان الحكيم

فقرة لم ينسها السادات، وهي فقرة تقول (كثر الكلام عن المعركة دون معركة حتى صارت المعركة مضغة في حلوقنا لا نستطيع أن نبتلعها ولا نستطيع أن نلفظها) كان السادات يكررها ويقول (المخرف العجوز)، واعتصم الحكيم ببيته مرعوبا، مدعيا المرض، واتصل بي طالبا مقابلة السادات، وبعد الزيارة بشهر سمعت عن مخطوطه عودة الوعي يوزع مكتوبا على الآلة الكاتبة، قال هيكل حين سمعت بذلك المخطوط الذي يوزعه توفيق الحكيم باسم (عودة الوعي) اتصلت به وسألته فأنكر، وقال لو فكرت في ذلك لأخبرتك فأنت صديق عزيز، ولكني حين تأكدت بأنه فعلا كتب هذا المخطوط ووزعه على مقربين منه لأخذ الرأي حوله عاودت الاتصال به وقلت له (إن غضبي منك ليس في أنك كتبت، ولكن لأنك كذبت)، وقلت له كنت في زيارة للدكتور طه حسين للاتفاق معه على عمل للأهرام وقال لي (أراك تؤثر أخينا الحكيم كثيرا، وأدعو الله أن لا تمتحن فيه)، ولقد امتحنت وسقطت وأخذت صفرا .

ويعود الأستاذ هيكل ليوثق الواقعة في كتاب "خريف الغضب" فيكتب: (حدثت في نهاية ١٩٧٢ حادثة غريبة ففي جو مشحون بالتوتر، ومع مظاهرات طلابية أغلقت بسببها الجامعات، اجتمع عدد من الكتاب والمفكرين في مكتب الأستاذ توفيق الحكيم بالأهرام واستقر رأيهم على توجيه عريضة أو خطاب مفتوح للرئيس السادات، يتعرضون فيه لقضايا الوطن والشباب عن المدة الطويلة التي يقضيها الشباب في التجنيد استعدادا لمعركة تبدو أبعد وأبعد كل يوم. وتحدثوا عن فداحة الضريبة التي يدفعها الوطن

لشعار لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.. ثم خرجوا من ذلك – وإن لم يقولوه صراحة – إلى أنه من المفيد اكتشاف حل دبلوماسي إذا استحالت الحرب. ولم ينشر هذا الخطاب الذي عرف باسم "عريضة الكتاب" في مصر وإنما نشر بالخارج، وعرف بها السادات من صحف بيروت، وذهب عبد القادر حاتم وزير الثقافة والإعلام لمقابلة عدد من الكتاب في مقدمتهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ، ونقل لهم ضيق السادات الشديد من البيان، وراح يشرح لهم حقائق الموقف، وبحسن نية كشف حاتم عن كثير من الخبايا، وكنت وقتها في رحلة لآسيا، وصلت منها للصين، وعند عودتي ألقى الحكيم علي بقنبلة، عبارة عن خطاب للسادات وطلب لقاءً معه بعد أن وصله بالطبع ما قاله السادات عليه من العجوز الخرف وروح الانهزامية.

وفي الخطاب المرسل للسادات كان شرح لمجمل الحديث مع د. عبد القادر حاتم، وكأن الحكيم يقول للسادات إن خطتك تشبه ما جاء في العريضة التي كتبناها فلماذا تقرظنا؟! وفي الخطاب ثلاث نقاط: الأولى أن الذين قابلهم د. حاتم هم: توفيق الحكيم، نجيب محفوظ، ثروت اباظة، أما النقطة الثانية أن الحديث عن الحل السلمي الآن هو أخطر من الحديث عن الحرب، لأن الرئيس سيجد نفسه محاصرا من جهات كثيرة أهمها ليبيا والمقاومة الفلسطينية والجيش.. النقطة الثالثة أن هناك معركة تراها مصر ضرورية، ولكنها ليست أكثر من مناوشة محدودة تلفت نظر العالم فيأتي الحل السلمى برغبة دولية يبدأ فيها الانسحاب ولو جزئيا عن أرضنا، ويقول هيكل نزل على ما في الخطاب نزول الصاعقة.

ويستكمل شهادته (ذهبت بالخطاب للسادات وكان وقتها باستراحة

القناطر، وذهل مما فيه وقال بالحرف "محمد.. هل هناك صورة لهذا الخطاب؟" وقلت له "الخطاب كما ترى بخط يد الحكيم" وبعدها علق السادات (كنت أتصور أن حاتم يصلح رئيس وزراء، ولكن الآن عرفت أنه أقل من ذلك بكثير.. على توفيق الحكيم أن يعقل ولا يكتب ذلك ولا حتى لي) ثم بلهجة تسليم اقترح السادات أن أحضر الحكيم لتصفية الموضوع مرة واحدة. وحمدت الله أن حققت رغبة الحكيم بلقاء السادات وتوقعت لقاءً عاصفا، ولكن السادات رحب بالحكيم وقال له على الفور: (أعددت لك مفاجأة) ثم صفق فجاء ضباط الحرس يحملون ماكيتا مجسدا لمشروع كبير، والتفت السادات للحكيم وسأله هل تعرف ما هذا؟ وكان رد الحكيم نظرة تساؤل، فقال الرئيس بطريقة مسرحية "أمامك دار الأوبرا الجديدة" ولمدة ساعة أخذ السادات يشرح المشروع: عدد المسارح، وتكنولوجيا الصوت والضوء المستخدم وقاعات الموسيقى، وكان ذلك مسارا لم أتوقعه للقاء، وأنهى الجلسة بعبارة (الصراع صراع حضاري ولا بد نستعد له) .

وفي سيارتي وأنا والحكيم عائدين ظللنا صامتين نصف الطريق، وأتذكر أني سألته: الذي حدث حوارا من مسرح اللامعقول؟! وبدا وكأن الحكيم في عدة أيام بعدها قد فرغ من مخطوطة "عودة الوعي" وراح يوزعها على المقربين، ووصلتنى نسخة طه حسين منه، أرسلها لي، وكانت هجوما حادا على عبد الناصر، واستغربت قصد زيد فأصاب عمرا، أقصد كان هجومه على السادات، فما الذي أوصلنا لعبد الناصر؟ ولم تمض شهور حتى راح السادات يشيد بالحكيم، بل أنعم عليه بقلادة النيل؟!



الفهرس